

اقرأ

الدكتور إبراهيم الكيلاني

# أدباء مع الجزائر



دار المعارف - بمطو



أَدَبًا وَمَعَ الْجَزَائِرِ



الدكتور إبراهيم الكيلاني

# أدباء من الجزائر

دراسة تحليلية عن كبار  
أدباء الجزائر المعاصرين

١٩٢      اقرا

دار المعارف بمصر

اقراء ١٩٢ - ديسمبر سنة ١٩٥٨

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ٥ شارع ماسبيرو - القاهرة

« إن المهم عندي أن نجد في آثار كتاب أفريقيا الشمالية  
أناساً من لحم ودم يشبهون الذين أراهم حولي » .

مولود فرعون

« يخيّل إلي أن أدباً قومياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى  
واسع وسخيّ هو في طور التكوين ، وهذا ينطبق بنوع خاص  
على الجزائر » .

محمد ديب

« . . . الأدب مرجع ثابت ، وكتاب جماعي يحوي  
صوراً وعواطف وارتكاسات ، وبالاختصار هو انعكاس لروح  
الأمة » .

عامر جلديرة

إلى

جميلة بوحيرد

التي تجسدت فيها روح الجزائر المعذبة

أهدى هذه النفحة العطرة

من أدب بلادها .

ا . ك .



## الأدب الجزائري الحديث

### توطئة

الأدب الجزائري أدب مسنقل ، ذو خصائص ذاتية مستمدة من البيئة التي يعيش فيها الشعب الجزائري فهو أدب قومي وإن شارك الجزائريين فيه كتاب فرنسيون وأجانب ولدوا وعاشوا في إفريقية الشمالية ، لأن أدب هؤلاء تجاوز في تصوراته وموضوعاته المحيط الإفريقي إلى آفاق تتصل بالأدب الأوربي والروح الأومية أكثر منه بالأدب العربي والروح العربية ، فهو أدب مصطنع ، مجلوب ، غريب ، في حين أن الأدب الجزائري الذي يكتبه كتاب جزائريون هو أدب واقعي ، فيه انعكاس لروح الأمة الجزائرية في عواطفها وارتكاسها تجاه الوجود ، وأمانيتها وأساطيرها وتقاليدها . فالأدبان منفصلان متميزان يصدران عن عالين منفصلين متميزين : اللاتيني والعربي .

ومن الغريب ، بل من سخرية الأقدار أن يجتمع هذان

الأدبان في نقطة مشتركة هي لغة التعبير ، فإن الأدب الجزائري الحديث يكاد يكون كله مكتوباً بالفرنسية لا بالعربية ، نعم ! بلغة فرنسية عالية لا تقل في رقيها ونصاعتها وروائها عن لغة أكبر كتاب فرنسا المعاصرين . ومرد هذا الشذوذ إلى الأوضاع التي خلقها الاستعمار الفرنسي في تلك البلاد منذ مائة وسبع وعشرين سنة ، فقد عمل الاستعمار عند احتلال الجزائر - التي فوجئت به ولم تكن قد أعدت له العدة واستكملت مؤهلاتها العلمية والقومية - أقول : إن الاستعمار عمل على القضاء على اللغة العربية وإحلال الفرنسية مكانها تمهيداً لعملية الامتصاص ودمج الشعب الجزائري في الأكثرية الفرنسية وربط مقدراته بفرنسا مباشرة ؛ وبما أن الفرنسية هي لغة المستعمر القوى فقد ترتبت على ذلك أمور وجد الجزائريون أنفسهم إزاءها أمام أمرين : إما أن يتلقوا علماً بسيطاً محدوداً يعطى على الطريقة البدائية القديمة لا يوفر لصاحبه شيئاً من التقدم والمنافع والارتقاء في السلم الاجتماعي ، أو علماً يدرس في مدارس منظمة ، حديثة توفر للطالب مزايا عقلية ومادية تسير التقدم والحضارة الحديثة ، فاختراروا الثاني - إن كان ثمة اختيار - بل لقد وصلت المأساة إلى حد أن زهد الجزائريون على مر الزمن

باللغة العربية ، وأقبلوا بحكم الواقع الاستعماري على تعلم الفرنسية جاعلين منها لغة تعبير وتخطيب وثقافة وعلم ، شأنهم في ذلك شأن الهنود والباكستانيين في اعتمادهم على اللغة الإنكليزية حتى صارت لغتهم الرسمية الخاصة . وهكذا فقد وجدت اللغة والثقافة الفرنسيتان مكاناً فارغاً في الجزائر فاحتلتاه ! .

وهذا لا يعنى أنه لم يكن بين الجزائريين من يجيد اللغتين ويتنوق الثقافتين ، إلا أن هؤلاء على قلتهم أصيبوا بما يصاب به كل متأرجح بين لغتين وثقافتين من تمزق في الشخصية الذي يؤدي — إن لم تسعفه الظروف والمواهب — إلى العقم والحفاف ، لأن إحدى اللغتين كما يقول الجاحظ تأخذ من الأخرى ، وتكون الغلبة في مراحل هذا الصراع للغة القوى الحاكم الذي يمهدها سبل التوغل والنمو والانتشار .

ويقيني أنه في اليوم الذي يتحرر فيه الجزائريون من محنتهم الاستعمارية ، فيتعلمون ويجيدون اللغة العربية ، فإنهم سيكونون في طليعة الشعوب الغربية المفكرة الواعية ، لأن المادة الفكرية عند الفئة الممتازة منهم موجودة ، والاستعداد الذهني والنضج العقلي كائنان ولا ينقصهم إلا أداة التعبير بلغة الضاد ، حتى إذا استكملوا هذه العدة ، وسدوا هذا النقص تكون

قد انضمت إلى الفكر العربي المعاصر عناصر حيوية جديدة تشد من أزره وتوسع من آفاقه ، بل أذهب بعيداً فإن تجديد الأدب العربي وبخاصة الروائي والقصصي منه سيكون على يد هذه الطليعة الجزائرية المثقفة من الأدباء والمفكرين .

طلع الأدب الجزائري حياً قوياً، ولكنه لم يطلع في دنيا العرب بل في أدب الفرنسيين فاحتل الأدباء محمد ديب ومولود فرعون وإدريس الشرايبي ومولود المامري ومالك الواري ومالك الحداد وكاتب ياسين . وغيرهم مكانهم في الأدب المعاصر ذي التعبير الفرنسي ، وتميز هذا الأدب من غيره من الآداب في واقعيته وقوميته وشدة ارتباطه بالأرض الجزائرية التي يعيش عليها شعب يريد الاحتفاظ على الرغم من سياسة التجهيل والإفقار المادي والفكري بمقوماته النفسية وذخيرته الروحية وطابعه الأصيل ، فلم ينس أدباء الجزائر في عالمهم الثقافي الرفيع ولغتهم المستعارة الحقيقة المؤلمة التي يعيش فيها أبناء قومهم ، بل عملوا ببراعة تحت ستار الفن الروائي على تثبيت صورة الجزائر في أذهان الفرنسيين ومن يجيد الفرنسية من بني قومهم ، ففي هذا الأدب مرارة وألم قلما يرتفعان إلى حد المطالبة الصريحة بالإصلاح والعدالة ، أو يهبطان إلى التضرع والشكوى ، بل بقي هذا

الأدب ضمن التعبير الهادئ الجميل يجلله الشعور بالكرامة والإيمان بالحق وعدالة القضية ويسوده الإباء والترفع .

إن الصفة البارزة في الأدب الجزائري الحديث هي « الواقعية » التي تعكس الأشياء والحياة والتجارب الفردية والجماعية في إطار فني ، فهو إذن أدب حقيقي كتبه أناس من صميم الشعب عميقو النظرة إلى الوجود ، شديدو الحساسية بالصلوات الإنسانية التي تربط بين الناس ، تتطور وتتموج في أديهم شخصيات متنوعة الأشكال والشيات فتبدو في صراعها الداخلي مع ذواتها وفي تفاعلها مع العالم الخارجي المستكينة لمشيئته حيناً والثائرة المتمردة عليه حيناً آخر ؛ ولا أقصد بالإطار الفني ذلك الفن المجرد المتعالى عن محيط الكاتب فيعوقه عن تحقيق رسالته المفيدة بل الفن الذي يعكس الحقائق في شكل حسي والذي يصدر أحكاماً على مظاهر الحياة تلك الأحكام التي من شأنها إيجاد الوعي وخلق المعرفة بين طبقات الشعب في سبيل القضاء على عالم فاسد يدعمه نظام استعماري فاسد وتحقيق عالم أفضل وحال أحسن .

إن كتاب الجزائر يشكلون الطليعة الواعية التي فهمت الماضي ووعت الحاضر وتطلعت إلى المستقبل .

إننى سوف لا أعرض لجميع كتاب الجزائر شارحاً أو محلاً  
آثارهم فالعمل أصعب من أن أقوم به بل سأقصر كلامى على  
خمسة منهم وهم : إدريس الشرايبي ومحمد ديب ومولود فرعون  
وكاتب ياسين ومولود المامرى ولم يكن انتخابهم على سبيل  
الترجيح والتفضيل بل تبعاً للظروف التى يسّرت لى اقتناء  
آثارهم دون سواهم .

## ١ - إدريس الشرايبي

من كتاب الطليعة الذين بنوا لأنفسهم مجداً ومكانة مرموقة في الأدب الفرنسي المعاصر ، ولفت أنظار النقاد فانقسم هؤلاء بين محبذ ، معجب ، متحمس ، منصف يرى في آثار الشرايبي صدى لمساوي الاستعمار وما ينطوي عليه من جرائم فظيعة ، وبين ناقد غاضب مبغض يرى في آثار الشرايبي وسواه من الكتاب الجزائريين كفراناً للجميل والنعمة ، وتنكراً للغة التي يكتب بها ، وإنكاراً لعمل فرنسا الحضاري القديني في أفريقيا الشمالية ! وقد أسهم الجانبان في التعريف بالشرايبي والدعوة له . تلقى الشرايبي علومه الأولية في بلدة تلمسان ، ثم رحل إلى باريز يدرس الكيمياء ، ولعل دراسته لهذا العلم يفسر هذه البراعة في التحليل والدقة في الملاحظة واصطياد النواحي الخفية وتثبيت الصور الآبقة التي يلحظها بعين المفن الواعي الموهوب .

واشتهر الشرايبي بروايته « التيوس » وهي رواية قوية عبر فيها عن حياة أديب جزائري جاء فرنسا ليكتب ويعيش من



أدبه وفنه . ولكن أنى له ذلك وهو من قوم دون أهل البلاد ،  
 وذو عقلية مخالفة لعقليتهم ونظرة للوجود لا تمت إلى نظرهم  
 بصلة ولذا عاش ساخطاً متبرماً ناقماً على الذين حرهوه نعمة  
 الحياة وأفسدوا عليه عيشه وأذلوا نفسه ، فلم يمكنوه من الارتفاع  
 فوق المستوى الذى يعيش فيه مواطنوه « التيوس » وهم الجزائريون  
 الذين رحلوا إلى فرنسا للعمل في معاملها ومزارعها . وقد استطاع  
 الشرايبي أن يعبر عن آلام مواطنيه ، فقد عاش معهم « يأكل  
 ما يجد ، وينام حيث يتيسر له مكان للنوم ، ويشغل أحياناً  
 حسب الظروف عاملاً ، وبائع صور خلاعية ، وحمالاً وعامل  
 منجم في الأعماق الكبرى » ولذا تراه صور لنا جميع الأساط  
 التى مرّ بها وذاق مرارتها وبؤسها . وأنت ترى أنه لم يقف موقف  
 الروائي الوصّاف بل استحال في روايته إلى فرد من بنى قومه ،  
 وجزء من كفاحهم حتى ليتساءل المرء في بعض أجزاء الرواية  
 عما إذا لم تكن هذه ترجمة ذاتية للمؤلف .

كيف يعيش هؤلاء الجزائريون في فرنسا ، وما هى الظروف  
 التى أدت بهم إلى هجر بلادهم والعيش في ديار الغربة ؟

إن هؤلاء الجزائريين قصة مؤلة أوجدها الاستعمار وسوء



الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الجزائر ، ونخلصها أن هؤلاء القوم لم يهاجروا إلى فرنسا كما يدعى الاستعماريون بدافع من « ميل غريزى عند الجزائري للرحلة والتنقل » ولم يهاجروا طلباً للمتعة واللهو ، بل لعل هذين الأمرين جديران بأن يصرفاهم عنهما ، فإن أكثرهم وعددهم يربو على الثلاثمائة ألف من طبقة العمال الزراعيين ، فعوضاً عن أن يشتغلوا في فرنسا بالزراعة اشتغلوا — وذلك لرخص أجورهم — في أكبر الصناعات مشقة وقنطرة ، وأشدها فتكاً بالصحة كالصناعات الكيميائية والزيتية ومصافي النفط والصناعات الفولاذية والحديدية الثقيلة والمناجم وبخاصة العميقة منها ، فهم ينتقلون فجأة من مناخ حار مشمس إلى بلاد قارية كثيفة الضباب والرطوبة ، يجابهون هذا المناخ القاسى بتياب رقيقة يرتدون في الفصول الأربعة على السواء ، وهم إلى أميتهم يعيشون في بلاد يجهلون عادات أهلها ولغتهم ، أتوا إلى فرنسا دون مال أو أسرة بعد أن غرر بهم مواطنوهم فيتجمعون حسب القرى والبلدان التي خرجوا منها ، يتكدسون في أكواخ حقيرة ، محرومين من الغذاء ، تنتشر بينهم الأمراض السارية ، يقطن أربعة أو خمسة أو ستة رجال في غرفة واحدة يستأجرونها بأفدح الأثمان ، يطهون طعامهم

بأنفسهم اقتصاداً بالنفقة من جهة ، وأنفة من المطبخ الأوربي من جهة أخرى . فإلى جانب فئة ضئيلة من هؤلاء المهاجرين الذين جاءوا إلى فرنسا ليعملوا في مهن حقيرة نجد الأكثرية منهم لا هم لهم سوى جمع كمية من المال والعودة بسرعة إلى بلادهم ليتحرروا بما جمعوه من قبضة المرابين الذين رهنوا عندهم مزارعهم وأراضيهم .

ولهذه المشكلة أسباب أخرى حرصت فرنسا على بقائها تؤدي كلها إلى انخفاض مستوى اليد العاملة والتوسع في سياسة الإفقار والتهجير .

أما بداية المغامرة كما يراها إدريس الشرايبي في رواية « التيوس » فهي في تلك اللوحات الإعلانية المنصوبة على الجدران في مدينة الجزائر القديمة أي في الأحياء العربية ، وهي تغري الجزائريين بحروف حمراء هائلة بالرحيل إلى فرنسا ، لأن فرنسا بحاجة إلى أيد عاملة ، وأن الديمقراطية خصبة في تلك البلاد ، وأن على من يريد الرحيل أن يسجل اسمه في الوكالة التي تدفع له حتى نفقات سفره .

حتى إذا وصل هؤلاء المهاجرون بعد أن باعوا ما يملكون

أو استدأنا مبالغ من المال لقوا المصير الذي ينتظرهم فعوضاً  
أن يجدوا العمل والرخاء تلقىهم البطالة بشبهها المخيف ، فأعطوا  
بطاقة العطالة ، وهى من الورق المقوى ، مستطيلة الشكل يحملها  
كل عربى « لكى يكون على وفاق مع المجتمع الذى نبذه » ثم  
يقضون أياماً طويلة يتسكعون أمام مكاتب العمل قبل أن  
ينحدروا إلى مهاوى البؤس والانحلال ، فقد أتوا من بلادهم  
وهم شديداً الأجسام أقوياء البنية فإذا بهم الآن « يدخلون  
ويخرجون ، هزيلي الأجسام ساغبين ، لاغبين ، يشبه بعضهم  
بعضاً كأن لهم وجهاً واحداً ، كامدى اللون وضع لكل منهم  
ثقب إضافى على بطاقته فيضعها فى محفظته بعد أن يطويها  
بعناية ، ويربطها بخيط ، وكنت تسمع عند خروجهم  
صوت تذرهم وسخطهم على الحياة فى سبحة طويلة من  
الشتائم .

وكذلك كان مصير بطل الرواية كمصير مواطنيه ، بطالة  
قاتلة للكرامة ، ومشجعة على الخسة والجريمة فهو يقول عند  
تسلمه بطاقته التى لا تسمن ولا تغنى من جوع مخاطباً المكلف  
بمكتب العمل : « لقد أكلت بطاقتى ، ولكنها لم تسد جوعى ،  
ويلزمنى كيلو من البطاقات كل يوم ، وبما أن الله سيعيد

نحلقى كل يوم فإنى أطالبكم بكيلو من البطاقات ، فهى الكمية التى تلزمنى .

ولو أن هذه البطاقة وهذا التعويض داما لحففا من بؤس هؤلاء المساكين ، ولكن عهد البطاقات قد انقضى حتى بات من الذكريات الحلوة ، فقد كان هؤلاء العمال يتذكرون وهم يقهقهون ، ذلك الدور الاجتماعى من حياتهم حين كانوا يحماون بطاقات العطالة يختمونها فى يوم معين ويرسلون إلى ذويهم فى الجزائر جزءاً مما يقبضون حتى قال هؤلاء : « وإن المسيحيين يدفعون لأولادنا مالا دون عمل ، وأصبح من الصعب الحؤول دون لحاق النساء والأولاد والأقارب والأصدقاء بهم إلى فرنسا » .

كان من الطبيعى أن يفقد هؤلاء المهاجرون كرامتهم ، وأن يصبحوا فرائس سهلة للانحطاط الخلقى ، وأن يعيشوا عيشة المنبوذين ، عيشة أقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسانية وقد حفلت رواية « التيوس » بالمشاهد الواقعية المذهلة التى ترك فى نفس القارئ أصداء نفسية مؤثرة :

« كان المهاجرون ينامون فى أقبية يصعب على المرء

اجتيازها إلا منبطحاً . وهي محرومة من اشواء والنور ، لا يخرج ساكنوها منها أبداً ، وإذا خرجوا منها اتخذوا الحيطه اللازمة فأحلوا ولو وقت قصير مواطنهم محلهم ، مسلحين بالمدى ، مستلقين على فرشهم ينتظرون إيابهم . ستون عربيا في كل قبو يحمون بضراوة ما يسمونه ملكهم وشخصياتهم ، وما هذا وتلك سوى فرش هزيلة رقيقة كدف خشبية . سوداء ، تحرك رائحتها الكريهة الغثيان . شغلت مساحة القبو بأكملها ، تفصل بين فراش وآخر حدود رمزية ، ولكنها حتمية إلزامية كالعقيدة ، ولا يستطيع الإنسان المنطوي المكث في الفراش إلا بعناء لأنه يجهل ما وضع فيها ، فهي إلى جانب وظيفتها كأداة للنوم تقوم في الوقت ذاته مقام الخزانة وطاوة الطعام ، ومستودع الحاجيات وأنواع الأواني والسلع والمقالى وعلب الكونسروة الفارغة وقطع إطارات الكاوتشوك وكسرات الخبز اليابس ، كما مدت في القبو حبال من جدار إلى آخر علقت عليها ما عجزت الفراش عن استيعابه . وكذلك الوصول إلى الفراش والاستلقاء عليه لا يمكن اكتسابه بالتعلم فهي هبة موروثة ! إذ على الداخل أن يعرف كيف يقفز منشياً من الباب إلى الفراش دون أن يصدى شيئاً من سقط المتاع المعلق على الحبال وإلا نشب القتال الهائل ،

ومع ذلك فعلى الفرد أن يعرف كيف يكتفى بالمساحة الضيقة ،  
 وألا يشخر في نومه إلا إذا سبقه الآخرون في شخيرهم بزمن بعيد ،  
 وأن يشخر معهم حسب الإيقاع وارتفاع الصوت أو انخفاضه ،  
 وإذا لسعه القمل والبق فلا يحكن جلده ، لأن حكة صغيرة  
 تهدم هذا القصر الورقي ، ومع ذلك فإن أية محاولة لقتل هذه  
 الطفيليات مضيعة للوقت لأنها والصراصير والعث خصبة جدا  
 وعنيدة ، ونشيطة .

نعم إن في القبو لمبة كهربية معلقة في السقف ، مصنوعة  
 بقفص حديدى يطفئها صاحب الدار حسب مشيئته ومزاجه  
 من منزله في الطابق العلوى ، كما أن سواها من الأضواء ممنوع  
 إطلاقاً ليس من قبل صاحب الدار فهو لا تظاً قدماء  
 القبو أبداً ، بل من نزلائه الجزائريين لأنهم لا يريدون أن يرى  
 بعضهم بعضاً ، ويأبون أن يروا بؤسهم ، وهم يتساحون إلى أبعد  
 حد بهذه اللمة الكهربائية المغبشة القدرة البائسة مثلهم .

وتدفع أجور هذه الأقبية كل أسبوع مقدماً ، وهى غالية  
 جدا ، أسعارها أقل بقليل من أجور الفنادق المشبوهة ، ولكن  
 صاحب الدار يستغل « النواحي الوراثة في العرق العربى التى

تحتم ألا يعيش العربي ويظهر ويموت إلا عربياً وفي وسط  
عربي .

وهل بلغك نبأ الحبال ! هني حبال قوية من مرس الكتان ،  
شدت إلى جدارين على علو ذقن إنسان ، طويلاً أو قصيراً ،  
وقد وضعت تحت الحبل مقاعد يجلس عليها النائم مسنداً ذقنه  
على الحبل ، ويدفع النائم لقاء كل ساعة نوم مبلغاً معيناً حتى  
إذا انقضت الساعة امتدت إلى النائم يد تهزه بدون شفقة ! .

أما اليقظة فهي مفجعة ، تتفكك الكتلة البشرية كحزمة  
من سلاح يعلوها أنين كأنين الكلاب ، وشخير وفرقة عظام  
وشتائم .

كان الحنين إلى بلادهم يطغى عليهم في شكل قاتم غامر  
كالمد ، وكانوا حريصين على التأخر في العودة إلى المأوى  
ما أمكنهم التأخر ، فيظلون وسط الضباب الشمالي يرتجفون من  
البرد ويسعلون ويبصقون ، تصطك أسنانهم ويدخنون اللفائف  
التي لا نهاية لها ، مفتخراً كل واحد منهم بالعمل الذي حققه  
ذلك النهار ، وعدد طوفات الفحم التي انتزعها من الأرض ،  
كانوا يضحكون ضحك المصروعين ، وهو تأكيد للحالة

السخيفة غير المعقولة التي يحيونها ، هل شاهدتهم يسرون  
 في شوارع فرنسا بخطى متثاقلة ، وأيد تلوح ، ووجوه  
 شاحبة . . . ينبعث من أنوفهم البخار ، يمشون بمحاذاة الجدران ،  
 الواحد تلو الآخر كالجردان المتسللة حتى إذا وجدوا أمامهم  
 منعطفاً ناتئاً ، مفاجئاً كالسد وقفوا جامدين لحظة وقد بهرتهم  
 الضجة المنطلقة من زمامير السيارات وفرامل العجلات ،  
 وخطوات الجمهور المحمومة ، وألوف المظاهر المبعثرة لحياة ليست  
 حياتهم ؟

إن مأساة هؤلاء الناس مثلثة : مادية ، ونفسية ، وعقلية :  
 مادية في كونهم عاشوا فقراء محرومين ، بل إنهم « لم  
 يعيشوا أبداً » ، إذ كانت حياتهم مجرد انتظار ورغائب ،  
 وكبت .

ونفسية « لأنهم فضلات ورواسب حضارة لم يتكيفوا معها »  
 فطحنهم هذه الحضارة برحائها الثقيلة فلم يبق لدينا كما يقول  
 البطل ، من معاني الحياة سوى الاختلاج والتخلع ، وغدا  
 اتصálnا بالمجتمع عن طريق السباب والسرقات واللكمات ،  
 فإننا نأكل وننام ونرى ونسمع ونعيش في جو من الثورة والحقد .



ويتجلى هذا البؤس المعنوى فى عبارة أخرى نطقت بها سيمون خلية البطل قالت : « عندما التقتك من الأرض لم أشهد بؤسك ، إننى لا أعرف ولا أريد أن أعرف ما هو البؤس ، فإذا كنت تعنى هذه الثياب الرثة ، والجلد الوسخ ، وتلك اللحية القدرة ، وهذه المعدة التى ثقبها الجوع ، بل هذه العطالة عن العمل ، فليس هذا ما أسميه بؤساً ، فهو بؤس مادى ، زمنى ، لا أهمية له ، أما البؤس الحقيقى فهو بؤس النفوس ، بؤس لم يخلقه فيك فرنسى أو تاريخ ، فهو آت منك وحدك وستموت فيه . »

وعقلية : تكمن فى تلك الوحشة التى تشابههم بين عالمين استحال فيهما التفاهم بين الفكر العربى الإفريقى الإسلامى والفكر الأوروبى ، عالم هؤلاء المهاجرين بلغته وتقاليده وعاداته وأسسهِ النفسية والأخلاقية ، وعالم غريب يعيشون على هامشه ، فلا يفهمون لغته ، ولا يستسيغون عاداته ، ولا يؤمنون بمفاهيمه ومثله فى الحياة ، فيعيشون فيه غرباء ، منعزلين بعد أن استحال عليهم إيجاد أرض مشتركة للتعايش ، وروابط وصلات للتفاهم مما جعل المؤلف ينطق البطل بهذه العبارة : « لقد مضى على عشر سنين

ما برح فيها دماغى الناطق والمفكر بالعربية يطحن بصورة  
سخيفة المفاهيم الأوروبية دون جدوى حتى تحولت تلك الأفكار  
إلى ضغائن سممت الدماغ نفسه . »

وفى هذا رد بليغ على الزعم القائل : إن الشعب الجزائرى  
العربى قابل للامتصاص والتمثل وإن الجزائر أرض فرنسية !  
« لأن الفرنسيين يتفلسفون ، ويضعون الخطط والمشاريع ،  
وينظرون إلى القضية من زوايا مختلفة ، دينية واجتماعية ومادية ،  
ولكنهم جميعاً لا يعرفون شيئاً عن حياة العربى ونفسيته فهم  
يطيرون فوق العرب كما يطير المرء فوق مدينة فيرقبها من عل  
جالساً على مقعد وثير بعد أن يكون قد ملأ بطنه ، وعكس  
دماغه حاملاً معه ووراءه وأمامه وفى داخل نفسه الفرضيات  
الرياضية القائلة إنهم وحدهم البداية والنهاية والمادة والعقوبة ،  
وإنهم يعرفون كيف يعيشون ويمثلون وأنهم وحدهم يملكون  
الحقيقة والخيال ، كما أن الاقتصاد يجب أن يوضع على  
صورته . »

فعلى من تقع التبعة فى النهاية ؟ هنا أيضاً أنطق المؤلف  
نخيلة البطل وهى تطرد صاحبها خارج دارها : « نم هذا هو

استغلال الأوربيين للجزائريين ، إني أنكر هذا دون ريب ،  
 إني ساخطة على هؤلاء الذين أخرجوكم من دياركم ، فهم  
 لا يعلمون ما يصنعون بكم حتى عجزوا عن الرأفة بكم ، نعم ،  
 إني أعرف إعطاء الأشياء حقها ، إني أعترف بأن حضارتنا لم  
 تستطع شيئاً سوى إلقاءكم في بحران اليأس ، إني لأستحي أن  
 أكون أوربية ، ولكن أنتم أهل أفريقيا الشمالية الذين أنقم  
 عليكم أكثر ، لأنكم أنتم المسئولون عما وصلتم إليه ، لقد  
 كنتم دوماً عرضة للاستغلال ، أنتم أردتم أن تستغلوا في  
 بلادكم قبل مجيء الفرنسيين ، وكنتم في كل زمان مستغلين ،  
 إنكم كالأعراق المتردية تتعاوركم الأيدي والأجيال والعصور  
 كالأرض ، الفينيقيون ومن بعدهم اليونان والرومان والقوط  
 والفننديون والأتراك والفرنسيون ! »

وهكذا استطاع المؤلف أن يحقق غرضه في كتاب « التيوس »  
 فقد عرض شقاء قومه على أنظار الجميع في شكل كتاب  
 فهو عبارة عن ثلاثمائة صحيفة مطوية تضمنت جانباً من الحقيقة  
 الجزائرية :

وفي الرواية صور بديعة صنعتها يد مفن صناع نور  
 بعضها :

قال يصف عيني راهب : « كانت عيناه وراء نظارتيه  
مسطحتين لا حياة فيهما ، كأنهما كرتان من مادة ( البلاستيك )  
أنزلتا بعناية في محجريهما » .

وقال يصف أكلولا : « ثم شرع فكاه يطبق أحدهما على  
الآخر كأنهما سكينتا مقصلة ! » .

وقال يصف أحلام الجائعين : « . . حتى إذا أثقله النوم  
سمع ضربات أسنان وقضها ومضغاً ، وكانت الحركة تلاحقه  
حتى في النوم ، قوية ، آلية كأنها أحناءك قطع من الذئب  
مقعية حول أرنب هزيل تنهش لحمه ، وتمضغه في الليل في  
مكان مقفر متجمد من البرد حيث لا يعثر فيه على أرنب واحد  
إلا مرة كل ستة أشهر ، ولكن هناك برد وجليد ووحشة !

وقال يصف مفوض مكتب العمل الفرنسي : « انتفشت  
في رأسه المتورم أهدابه وشعر ذقنه ، ولم يكن له حاجبان  
بل كانت له عروتان من جلد أصفر تتوسطه حبتان سوداوان  
مدورتان لامعتان هما عيناه » .

وآخر : « جفناه جامدان كأنهما صنعا من ترابة الأسمنت  
تثبتان عينيه المصوبتين نحو جهة واحدة » .

قال يصف البطل وهو يقبض على خصر خليلته النحيل :  
« ولو أردت إطباق يدي على خصرها لسمعت تفقيعاً يشبه  
تفصم هيكل عصفور ! »  
أما هي فقد نظرت إلى عينيه فإذا « هما غارقتان تحت  
حاجبيه المقوسين اللذين يبدوان كحافة قبعة ، فقالت في  
نفسها : كأنه يريد أن يحتوى من الحياة ! »

## ٢ - محمد ديب

قلت فيما سبق إن الأدب الجزائري أدب جديد ، ذو خصائص قومية بارزة ، يستمد ذاتيته ونسغه من البيئة التي يعيش فيها الشعب الجزائري ، ولم يحل الاستعمار الذي ناء بكله البغيض على الجزائر دون بروز هذه الخصائص ، وهذا الأدب وإن كتب بلغة فرنسية فهو يعبر من وراء الحجاب اللغوي عن أعماق الأسس الروحية والاجتماعية التي يقوم عليها ماضي الشعب الجزائري وحاضره ، كما يعكس بوضوح صراع هذا الحاضر مع الأوضاع الاستعمارية التي تصده عن البروز وتقف دون نموه .

نحن الآن مع كاتب جزائري آخر هو محمد ديب مؤلف رواية « البيت الكبير » ولد في تلمسان في ٢١ تموز سنة ١٩٢٠ ، وبعد أن درس في مسقط رأسه ثم في مدينة وُجدة زاول عدة مهن مكنته من الاتصال بالطبقات الشعبية الكادحة ، والاطلاع على نفسيات أهلها وأحوالهم المعاشية ، فقد عمل صانع سجاد ،

ومحاسباً في محل تجارى ، ثم معلماً وصحفيًا إلى أن انقطع للأدب نهائياً فكانت باكورة أعماله الأدبية رواية « البيت الكبير » هي من أروع الروايات في تصوير الحياة الجزائرية في بؤسها وشقاؤها وتناحر ناسها وآمالهم وإنسانياتهم وقساوتهم ، وتجرى حوادثها سنة ١٩٣٩ ومركزة حول البطل عمر وهو صبي دون البلوغ يعيش مع أمه الأرملة عانية في بيت كبير للأجرة تقطن غرفه أسر العمال الفقراء ، وهو أشبه بخلية النحل يتكدس أفراد كل أسرة في غرفة واحدة ، وتسوده في النهار ضوضاء الأولاد وصراخهم ونداءات النساء ولغظهن وثرثرتهن وحركتهن المستمرة وفوق هذا فقد « احتجرت غرف الدار في الليل عدداً كبيراً من الأطفال حتى إذا طلع الصباح قذفت بهم إلى صحن الدار في فوضى وضوضاء لا مثيل لهما ، فالأطفال ذوو اللعاب السائل ، والوجوه اللامعة من أثر المخاط يمرون واحداً واحداً ، وكان من لا يستطيع منهم المشي يزحف رافعاً استه إلى العلاء ، وكانوا يكونون ويزأرون جميعاً ، ولم تكن الأمهات ولا بقية النساء يرين فائدة في الاهتمام بالأمر . »

ولم يقف المؤلف في تصوير حياة سكان الدار اليومية موقف المراقب أو الملاحظ الحيادي بل أشركنا من خلال

الولد عمر . وعمر هو المؤلف في صغره . الذى يعيش مع أمه عانية وأختيه عيوشة ومريم في غرفة واحدة عيشة بؤس رهيب يسيطر عليهم شبح الجوع والحرمان واليأس من الغد حتى إن عانية كانت تخاطب ابنها في ساعة من ساعات ضجرها وبرمها من العيش قائلة : « هذا كل ما تركه لنا أبوك الفاشل ، الشقاء ، ولقد غيب وجهه في الأرض وانهاكت على جميع أنواع البؤس ، فكانت نصيبى في حياتى كلها ، إنه الآن هادئ في قبره ، لم يفكر يوماً بإدخار شيء من المال فلصقتم بى كما يلصق العلق ، لقد كنت سخيفة ، كان الأجدد بى أن أهجركم في الأزقة وأفر إلى إحدى الجبال الجرداء ! »

ولم يعتمد المؤلف في النواحي الاجتماعية والنفسية التى يبدو على ضوءها أشخاص روايته طلب الإصلاح والتخفيف من آلام مواطنيه بل اكتفى ببسط أمام أعين القارئ لوحات متتابعة بلغ من مهارته في تصويرها أنها ترسخ في الذهن حتى يصعب على المرء الخلاص منها ، فيشعر بعد الانتهاء من مطالعة الرواية بغثيان عاطفى ، مبهم ، ثائر ، يخالطه الأسى والإشفاق على هذا الشعب المعذب يخلف بعده شعوراً بالنقمة والسخط



على الاستعمار والمستعمرين أصل هذا البلاء ، وسبب هذه الرزايا المحزنة .

والرواية على صغر حجمها تجمعت فيها صور ولوحات عن جميع المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي خلقتها الأوضاع الاستعمارية في الجزائر ، كحاربة اللغة العربية التي هي سلاح القومية ، وعمليات التثقل الرامية إلى ذوبان الشخصية الجزائرية في المحيط الفرنسي ، وسياسة الإفقار والتجهيل التي هي من أبرز صفات الاستعمار الفرنسي كل هذا يؤديه محمد ديب في سطور قليلة بليغة دقيقة لا نجد مثيلاً إلا عند كبار الروائيين ، مثال على ذلك وصفه درس الأخلاق الذي يلقيه المعلم حسن على تلاميذه الصغار ؛ فقد سألهم مرة ما هو الوطن ؟

فلم يفهم الصغار ما تعنيه هذه الكلمة الغريبة التي بقيت بعد السؤال « كأنها معلقة في الفضاء تتأرجح » فما كان من أحد التلاميذ الراسبين إلا أن رفع أصبعه مجيباً : إن فرنسا هي وطننا الأم !

وكان الجواب وحده سبباً لسلسلة من التساؤلات في نفس الولد عمر يعالجها بعقليته البسيطة وغريزته العفوية ، فهو يعلم

أن فرنسا عاصمتها باريس ، وأن هؤلاء الفرنسيين الذين يشاهدونهم في المدينة يأتون من فرنسا ، وهم لذلك يركبون البحر في الغدو والرواح فكيف يصح والحالة هذه أن تكون فرنسا أمه ، وأمهم هي عانية ، وهي في البيت وليس له أمان ، إذن لقد اكتشف الكذبة ، ففرنسا ليست أمه ، وهكذا فقد كان الصغار يرغبون على تعلم الأكاذيب لينجوا من القصاص والضرب بقضبان الزيتون !

ولكن المعلم حسن لم يكن ليترك هذه الفرصة تمر دون أن يفهم تلاميذه في شيء من العناء والخرج أن الوطن هو أرض الآباء ، وهو البلد الذي استوطنه أهلهم منذ عدة أجيال ، حتى إذا جاءه الأجانب من الخارج ليحتلوه أصبح الوطن في خطر ، فهؤلاء الأجانب أعداء يجب على أهل البلاد أن ينتصبوا في وجوههم ليردوهم من حيث أتوا ولو أدى هذا إلى التضحية بحيواتهم جميعاً ، وأن الوطنيين هم الذين يحبون وطنهم ، ويعملون لخيره وصالحه !

وتجرب حياة الولد عمر كغيرها من حيوات أشباهه من الأولاد المغمورين الهزيلين الحفاة العراة « ذوي الشفاه السود وأعضاء العنكبوت والعيون المتوهجة بنار الحمى ، يملأون أزقة

الجزائر الضيقة ودروبها المظلمة لا هدف لهم في الحياة ،  
ولا أمل في العيش ، ألفوا الفقر والفهم ، ولصقوا بالشقاء ولصق  
بهم تمر أيام يتضورون بها جوعاً فلا تجد عانية أم عمر  
لإسكات هذا الجوع في أحشاء بنينا بدا من المراوغة ،  
فتعلمهم بالقدر التي تغلى على النار ، وليس فيها سوى الماء ،  
كما كانت تفعل تماماً العجوز زمن عمر بن الخطاب فينام  
الأولاد بعد أن أحرصهم الإعياء ، وأرخى النوم بثقله الرصاصي  
أجفانهم ، ناموا لأن صبرهم في انتظار الطعام قد نفذ ، ولأن  
أبدانهم الهزيلة لم تعد تستطيع المقاومة طويلاً !

إن هذا الجوع الذي يتراءى في كل صفحة من صفحات  
الرواية ذاته الذي يجعل الأم تصيح بلسان الشعب الجزائري :  
« نحن فقراء ، ولكن لماذا نحن فقراء ، إن أمها لم تكن تجيبها  
على سؤالها ، وقال بعضهم إن هذا مشيئة القدر ، وقال آخرون :  
إن الله وحده يعلم لماذا نحن فقراء ، ولكن هل هذا يكفي ،  
ولعل الأشخاص الكبار يعرفون الجواب » !

وتثور مشاكل الواقع الجزائري الأليم من خلال المناضل  
الذي أسماه المؤلف حامد سراج ويظن أنه محمد ديب بعد بلوغه  
العشرين ، ينطق باسمه ، ويعبر عن آرائه وأفكاره الثورية

تجاه ما يعانيه الجزائريون من الظلم الاجتماعي ، إن حامد سراج الذي لاحقه رجال الأمن من مكان إلى مكان ، وفاجأوا البيت الكبير مرات للقبض عليه مروّعين النساء والأطفال هو نفسه — الذي وقف خطيباً في العمال الزراعيين الذين جاءوا من أقاصى الجزائر لسماعه في بلد يسوده الإرهاب والنظام البوليسي : « إن عمال الأرض لا يستطيعون العيش بهذه الأجور التي يقبضونها ، فهم سيتظاهرون بقوة ، يجب أن نضع حداً لهذا الشقاء ، إن العمال الزراعيين هم أولى ضحايا الاستغلال المنتشر في أنحاء البلاد ، إن أجر العامل عشرة فرنكات يومياً وهو أمر غير مقبول ، يجب أن يطرأ تحسن فوري على حياة العمال الزراعيين ، ويجب العمل بقوة لبلوغ هذا الهدف إن العمال المتحدين يعرفون كيف ينتزعون النصر من المستعمرين وحكومة الحاكم العام ، وهم مستعدون أبداً للنضال » .

وكما أن حالة العمال في المدن لم تكن بأحسن من حالة عمال الريف ، ففي الرواية مقاطع تصور هؤلاء فريسة للبطالة المتفشية بين أرباب جميع المهن وهم كلهم يعانون الجوع والحرمان ، ويشغل نساؤهم وأولادهم أيضاً ولكن دون جدوى وهذا ما جعل أم عمر تصيح قائلة : « . . . حتى ولو عملنا طوال

الحياة لما بقى لنا فى نهايتها سوى ملاجئ العجزة والشحاذة وإذا جاء الموت قبل ذلك حمدنا مجيئه ، فالموت لنا غطاء من ذهب ، وإذا لم يأت هذا الموت أو لم يرض بنا ، حتى إذا عجزنا عن العمل وظللنا على قيد الحياة فتلك هى المصيبة الكبرى ، وإذا لم يسع إلينا القبر حينئذ سعينا إليه ، وإذا استطعنا شربناه بالموت ، لقد عشنا على هذه الأرض وانتهى كل شئ فنكون بذلك قد شهدنا شقاءنا إذ لم يبق شئ يغرينا فى هذه الدنيا . »

وفى الرواية صور فنية رائعة تدل على أصالة الكاتب ودقة ملاحظته وامتلاكه ناصية التعبير عن الحقيقة الإنسانية والاجتماعية التى يحياها أبطال روايته الممثلين لأغلبية الشعب الجزائرى ومن هذه الصور الموفقة قوله فى وصف البيت الكبير فى فصل قارئ : « كان الهواء فى الخارج يهتز فيتساقط كالرماد الأشهب ، كل شئ قد غسل فى جنح من النور ، وكان الأولاد يصطدمون فى كل لحظة بالحواجز التى نصبها حرّ آب الجفاف ، وكانت السماء فى حالة غليان تقىء عجيجاً من الذباب تجلبه الروائح المنبعثة من الحفر ، وكانت هذه النهارات تقذف الحى بروائح جيفية منتنة قوية ، عنيدة لا تستطيع ضربات الهواء ولا هبوط الحرارة فى الليل تبديدها . »

ومن قوله في وصف بطله عمر النائم في فراشه : « وكان عمر لا يفتأ عن التقلب في فراشه ، وقد استولى عليه الأرق ، وكانت ثيابه تزعجه ، وفي الهزيع بدأت الحكمة تنتاب كل جسمه ، فكانت الأظافر تكشط طويلا البطن والأليتين والفخذين وكان البق عندما تسيطر الظلمة ينساب من مخبئه متسللا إلى فرش النائمين ومع أن الحيطان كانت مطلية بالكلس فكان يرى كثيراً منه ، وكانت الأم عانية تضيء الغرفة مراراً في الليل وتسحق عدداً منه ، وفي النهار كنت ترى خيوطاً سمراء طويلة تركتها الأصبع التي قعست البق على الحائط . »

وقوله في وصف قرية في أعلى الجبل : « يسكن القرويون في حفر في الجبل ؛ والرجال والنساء والأطفال والحيوانات ، وتقع مقبرة القرية فوق رؤوسهم على المرتفع ، وهكذا يسكن الأحياء تحت الأموات . »

وقوله : « وكان ضوء المصباح الكهربائي الضعيف ، المجرد عن العاكس ، المعلق في السقف يثقب الليل . »

تلك هي لمحة عن رواية البيت الكبير التي جعل منها محمد ديب رواية الجزائر القومية والتي حقق بها رسالة الأديب الذي يكشف عن الحقائق التي يعيش عليها الشعب الجزائري

ولعل في إظهار هذه الحقائق الاجتماعية إنارة للطريق الثورية التي سلكتها الجزائر نحو حياة أفضل وعيش أحسن .

إن محمد ديب أديب جزائري فذ ، وقد ظهرت بعض نواحي عبقريته من خلال رواية « البيت الكبير » التي صور بها شعب الجزائر في المدن ، ويظهر أن محمد ديب عازم على التوسع في تصوير الحياة الشعبية الجزائرية ، والغوص في أعماقها المجهولة ، فقد أتبع روايته الأولى رواية أخرى أسماها « الحريق » صور بها حياة الريف ، وبؤس الفلاحين والعمال الزراعيين ومظاهر صراعهم مع المستعمرين الذين انتزعوا منهم أرضهم جوراً ، وحرموهم القوت الضروري بعد أن جعلوا منهم أجراء ، مساكين ، محرومين من الحد الأدنى للحقوق الإنسانية .

وقد جعل محمد ديب قرية « بني بوبايين » مسرحاً لروايته ، وهي قرية جبلية تشرف على سهول يسكنها المستعمرون ، وتجرى الحوادث بين المنطقة الجبلية الجرداء التي يقطنها الفلاحون المكبدون ، والسهول الحصبة التي يستغلها وينعم بخيراتها المستعمرون . فالمنطقتان إذن تمثلان الصراع بين الفقر والغنى ، والحرمان واليسر ، والمغتصب المغلوب على أمره والغاصب المتهادي في عدوانه . ومظاهر البؤس وإن تعددت في الريف

فهي نتيجة لعدة واحدة هي الاستعمار وما يجره في أثره من ظلم ومأس . وإذا كان الجزائري المدني هو ذلك الرجل الذي يتضور جوعاً ، الحافي القدمين ، الذي لا يستر جسمه سوى أسنمال قلرة ، فإن الفلاح الجزائري أسوأ منه حالاً ، وإن تغير الوسط بعض الشيء ، ولذا فإن الولد عمر بطل رواية « البيت الكبير » الذي نقله المؤلف إلى الريف ليتمرس بهذه الحياة الحشنة القاسية لم يعجب من بؤسه ولم يتمرد عليه عندما شاهد أمثاله من أطفال الريف الذين يشبهون كما يقول محمد ديب « الجراد لهماهم وضعفهم » ، فإن « ثيابهم عبارة عن خليط من الخلق المجموعة ، ينتعلون في أرجلهم جلود الخراف مشدودة بنحيطان « المصيص » ، ويركضون حفاة في أغلب الأحيان ، تفتحت عيونهم ذوات الأحداق السمراء والخضراء على أرض جرداء تركت لهم ، يهيمون على وجوههم في شكل عصابات ، ويغمرهم المرح وسط الوحل وغبار الطرقات ، وإذا كان يغلب على أطفال المدن الحفة والحدة والطيش فإن أطفال الريف رُضاء ، قد أكسبتهم عشرتهم للحيوانات في قراهم النائية المنعزلة انكماشاً وسكينة وفهماً أكبر . للشقاء ! » .

وقد أولع محمد ديب بالتصوير ، وروايته ملأى باللمحات



السريعة الخاطفة تعبر كل واحدة منها عن فكرة اجتماعية أو صورة واقعية، أو خاطرة نفسية، ولعل من أجمل صوره تلك المقارنة التي عقدها بين الأولاد الجزائريين البؤساء المشردين وبين أولاد الأوربيين المستعمرين القاطنين في الجزائر، وكان المؤلف مسوقاً بحكم بطل روايته الولد عمر إلى الإكثار من وصف الأولاد والأطفال وسرد حوادثهم لأن الطفولة التعسة هي من أهم المشاهد في تلك البلاد حيث حرم تسعون بالمائة من نعمة العلم والنور قال : « كان الأولاد الجزائريون يلعبون في شكل عصابات صغيرة وهم دوماً على أهبة الفرار أمام رجال الشرطة الذين يطاردونهم في كل مكان ، قد ألبسوا أردية عتيقة ، بالية ، ذوات أكمام مشمرة عند المفصلين وفي أرجلهم أحذية رجالية ، صفر الوجوه ، عيونهم سوداء ، ينظرون باستغراب إلى الناس والأشياء ، هم نشيطون لا يفتأون عن التشاجر وملاحقة بعضهم بعضاً ، وبما أنهم مكرهون ومضطهدون من قبل المدنيين وجب عليهم الفرار في كل لحظة يتبعهم غضب الناس ، إنهم يمتنون الشحاذة وفي بعض الأحيان النشل والسرقة ، ينظرون بعيون شاخصة ثابتة إلى الرجال والنساء والأولاد الأوربيين ، ينظرون إليهم بل يحملقون بانتباه متجمع

مما يظهرهم أسنّ مما هم عليه في الحقيقة ، ينظرون بصورة غريزية إلى ثياب الأوربيين الجديدة وأجسامهم النظيفة السليمة التي لم تعرف الجوع ، تبدو عليهم مظاهر السعادة والشعور بالطمأنينة والأمن والصيانة ، فيهم صفات الأدب واللفظ والتهذيب التي يبرزونها كثياب العيد والأطفال الأوربيون يخشون عادة أطفال العرب ، وإذا أرادت أمهاتهم أن يخفهم صرخن مهددات « سأنادي العربي ! »

ولاشك في أن الأطفال الجزائريين ذوو حيوية مبكرة لا تلبث أن تنطفئ رويداً على مر السنين يقتلها سياق البؤس الرتيب والجهل والتعب المتراكم ولعله أيضاً إدمان الحمرة والسجون .

وقد يمكن أن يكونوا غير هؤلاء . . . « ويستطرد محمد ديب في وصف نفسية الأطفال المحرومين فيقول : « وهكذا فإنهم سريعو الحركة ، صامتون قد انتصب أمامهم الآن عالم من القيود والسدود الذي يشعرون بقوته دون أن يفهموا معناه ، فهم يظهرون بغتة من أطراف المدينة تحركهم رغائب غامضة مبهمه . . . فإن أقل حاجة يقذف بها إليهم كالعلب الفارغة ، واللعب المكسورة والجرائد المصورة التي لا قيمة لها تجعلهم

يفرقون في إعجاب ذهولي ، فيتنازعون ملكيتها بضراوة تخلع على هذه الأشياء التافهة قيمة الأشياء النادرة المثالية ، وكل من يحتفظ بالحاجة بعد معركة أخيرة يحق له أن يرفع غنيمته رمزاً للنصر .

أما الفلاحات الجزائريات في قرية بني بوبلين فهن « ذوات بشرة سمراء ضاربة إلى الشقرة كالعسل أو الذهب ، ولكن هذا لا يدوم طويلاً . . . فسرعان ما تغدو أجسامهن كأجسام الحمالين ، تعلو أرجلهن التي تطاء الأرض شقوق عميقة ، يجرن أجساماً هزيلة تبرز منها الأضلاع . . . هذا مع الجوع الهائل الذي يخالط نظراتهن . »

والرواية من خلال الحوادث والأوصاف واللوحات الفنية ذات هدف اجتماعي يظهر إحساس الفلاحين والعمال الزراعيين بحالتهم البائسة ، وبدء الوعي عندهم الذي أخذ في أول الأمر شكل تدمير وشعور غامض بالظلم ، هذا ويعمل على إيقاظ الفلاحين ، وإنارة السبيل أمامهم وتجسيد أمانيتهم وتبلور رعايتهم المبهمة التي تصطرع في نفوسهم ، والتمهيد لحياة أفضل وأحسن ، وتوضيح نواحي الظلم الاجتماعي الذي يعانون أقول : يعمل على خلق كل هذا مناضلون ذوو تجارب ونضج

وإيمان بحماية وإمكانيات الشعب الجزائري في زحزحة المستعمرين عن مواقعهم . ففي الرواية تسيطر شخصيات حامد السراج الداعية الاشتراكي الذي يلاحقه المستعمرون ، والكوماندار ، وابن أيوب وغيرهم ، فهم الذين يدفعون بني قومهم إلى التمرد والمطالبة بحقوقهم واسترداد ما أخذ منهم جوراً ، ولكل من هذه الشخصيات أسلوبه وطريقته ولهجته وأفكاره ولكنهم جميعاً يتلاقون في نقطة واحدة هي إيقاظ الروح الجزائرية التي تراكت عليها منذ سنة ١٨٣٠ رواسب وطبقات كثيفة استعمارية كادت تؤدي بمعالمها القومية وشعورها الوطني .

ومن الطريف أن يتعرف القارئ من خلال هؤلاء الأشخاص إلى العضلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقومية التي خلقها الاستعمار بقصد أو دون قصد في الجزائر ، فكل واحد من هؤلاء يحمل بين جنبيه المأساة الجزائرية في شقيها المادي والإنساني فالكوماندار — وهو لقبه الذي اكتسبه من الجندية فحل محل اسمه الأصلي الذي نسيه الناس — شخصية محبة تمثل التوثب والأمل بالخلاص ، والكوماندار كسيح فقد ساقه في الحرب العالمية الأولى وقد « لف ما تبقى من ساقه المبتورتين إلى الركبتين بنحرق كثيفة حتى صارتا تشبهان في سماكتهما

عمودين رخامين مبتورين » إن الكوماندار هذا هو صاحب  
الحلم الغريب الذى قصه على الطفل عمر قائلاً : « كان  
القمر يجرف الزبد من أعالي الفجوات التى تفغر أفواهها بين  
الهضاب ، حتى خيل للناس أن الوقت ليس بليل ، فقد كان  
الهواء والأرض يتألقان حتى صار من الممكن تمييز كل باقة من  
باقات الحشيش ، وكل مدرة من مدر الأرض ، فكان الهواء  
والأرض والليل تتنفس ببطء ، وفجأة سمع وقع حوافر تضرب  
الأرض فيرن صداها في القرية ، فانتصب الفلاحون مذعورين ،  
واقتربت الضجة أكثر فأكثر حتى غدت كأنها رعد ينتقل من  
أول القرية إلى أقصاها وهرب النوم من عيون الفلاحين ،  
ولحظ الذين جلسوا على أبواب أكواخهم تحت جدران المنصورة  
حصاناً أبيض لا سرج له ولا لحام ولا فارس يعلوه تهتر لبدته من  
شدة العدو . . . واختفى الحصان العجيب في الظلام ، وبعد  
دقائق عاد العدو من جديد يطرق الليل ، وظهر الحصان عند  
أسوار المنصورة وبعد أن طاف حول المدينة القديمة اختفى من  
جديد ، وكانت الأبراج العربية التى قاومت الحراب تلقى  
بنحالاتها القوية في الضياء الليلي ، ثم عاد الحصان يدور حول  
المدينة القديمة ، وعند مروره طأطأ الفلاحون رؤوسهم واعتري

قلوبهم الاضطراب والكآبة ولكنهم لم يرتجفوا بل تذكروا أولادهم ونساءهم قائلين : « أُعَدُّ يا حصان الشعب في الليل ، في ساعات الخير والنكد ، في ضوء الشمس والقمر » .

ويتابع الكوماندار قوله : « ومنذ ذلك الحين يستيقظ هؤلاء الذين يحاولون الإفلات من مصيرهم أو الذين يترددون في التفتيش عن أرضهم ، أو الذين يريدون أن يتحرروا أو يحرروا أرضهم إن جنون الحرية قد ارتفع إلى أدمغتهم ، من ذا الذي ينقذك أيتها الجزائر ، إن شعبك يمشى على الدروب سائلا عنك ! » .

وإذا نصتنا إلى ما يقول بقية أبطال الرواية أمثال حامد السراج الذي أوجد في الأذهان فكرة الثورة والاتحاد في وجه المغتصب ، وابن أيوب الذي صاح وهو قابض على حفنة من أرض الجزائر : « سيأتي يوم يحاسبنا فيه أولادنا حساباً عسيراً ، وسيهبون لصب اللعنات علينا ، إني أرى من خلال المستقبل أحفادي يكيلون اللعنات لجدهم ، إني أراهم يتقدمون نحوي صائحين : الله أكبر ، الله أكبر ! » .

وابن أيوب نفسه يخاطب أهل قريته قائلا : « ألسنا غرباء في بلادنا ، والله يا أصدقائي إني أكلمكم كما أفكر ، إنهم

يظنون أننا نحن الغرباء ، والغرباء هم أهل البلاد ، لقد استولوا على كل شيء ويريدون أن يصبحوا أسياداً أيضاً ، وجعلوا من واجبهم الحق علينا ، نعم إنهم يجيدون فن الزراعة ، ولكن هذا لا ينفي كون هذه الأرض ملكاً لنا ، أفلا تعتقدون أننا قد حشرنا في سجن وأخذوا برقابنا حتى استحال علينا التنفس . . . .  
وفي كل يوم ينتزعون قطعة من لحمنا فيبقى مكانها جرح عميق تسيل منه حياتنا ، هم يصرعوننا رويداً رويداً ، يا جيرانى موتوا وأنتم تعملون ، ولا تتركوا أرضكم ، ولا تهجروا شبراً منها لأنكم إن هجرتموها هجرتكم وستبقون أنتم وأولادكم أشقياء مدى الحياة .

إن هذه الأقوال وغيرها التى تشير إلى حنين الجزائريين إلى أرضهم المغتصبة وتمسكهم بها إنما تعبر عن معضلة كبرى نشأت بعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر واستيطانهم تلك البلاد واللجوء إلى المصادرة الجبرية وتفكيك الملكية الفردية وتبديد الأوقاف وتشجيع الهجرة الاستعمارية ، ولكن هذه الأساليب وإن أدت إلى تجريد الجزائريين من مصدر قوتهم فقد خلفت فى نفوسهم روح المقاومة يصفها أحد أبطال الرواية على بن رباح الذى خاطب المعتدلين من قومه قائلاً : « إن

الرجال عندنا صنعوا من معدن عال كريم ، كما أن القلب سليم من كل شائبة إن جميع أنواع البؤس والشقاء التي عرفناها لم تنل منا ، وليس هذا اليوم الذي تطأطي فيه رؤوسنا ، إن كل رجل حولك هو مخزن بارود تكفيه شرارة لينفجر ! » .

إن هذه الأفكار التي سرت بين الفلاحين سريان النار في الهشيم قد أوجدت أسساً للثورة والوعي الاجتماعي ، وبدأ الفلاحون يشكون فيما بينهم من ضالة الأجور التي يدفعها المستعمرون الذين جمعوا ثروات البلاد في أيديهم ، ثم أخذ التدمير في التوسع حتى عم الريف « جو لا يوحى بالطمأنينة والهدوء » فوق إضراب العمال الذين يعملون في المزارع الفرنسية فجرد المستعمرون ومن ورائهم الحكومة قوى الأمن لمطاردة المضربين وإرهابهم والتنكيل بهم وفي الرواية مقاطع رائعة عن موقف المستعمرين من أهل البلاد ، وعن العقلية الاستعمارية وعلاقة المستعمر بالمستعمر القائمة على الازدراء والبغض والحقد . كما أن في الرواية لوحات أدبية فنية تثبت أصالة الكاتب ودقة ملاحظته وتجميده اللحظات الدقيقة الآبقة المعبرة عن نفسية أصحابها في أسلوب مكثف رشيق يدل على امتلاكه ناصية اللغة الفرنسية .



فمن الصور المنتقاة قوله في وصف نسوة يتشاجرن بشدة  
وضجيج : « كانت النسوة يتكلمن كلهن معاً ، كأنما نبت  
لكل واحدة في وجهها فم إضافي ! » .

وقوله في وصف الليل في الريف : « لقد انتصب الليل  
في كل ناحية ، فكان كيلاً تاماً لا شق فيه ، ولا يشبه الليالي  
التي نراها في المدن ، فهو هنا يحتكر الكون فيبدو كشيء موحش  
جامد ، ليس فيه من معالم الحياة إلا صراخ الحيوانات أو زئير  
الأرض ، وكان مصباح الزيت الذي أشعله الفلاحون بمثابة  
سور هزيل من الضياء ، ولكنه ضوء جاء من عندهم ، فمس  
حواشي الليل ! »

وقوله في وصف المزابيل التي يتراكم إليها الفقراء ليجدوا  
ما يأكلون : « وكانت المجموعات البشرية قد جهزت حملات  
حقيقية إلى الأمكنة التي تفرغ فيها عربات البلديات محمواها  
وكنت ترى إلى جوانب هذه المستودعات التي تشكل هضاباً  
جماعات من البشر توهمك بوجود قرى خيالية تفتحت على  
أكوام القمامة كنباتات سامة » .

هذا هو محمد ديب في روايته « الحريق » وهو بذلك  
لا يقل إبداعاً ونبوغاً عن أكبر الروائيين الأوربيين في العصر

الحاضر بله الشرقيين . .

قلت : إن محمد ديب عزم على تصوير حياة الجزائري الاجتماعية في سلسلة من الروايات تهدف كل واحدة منها إلى ناحية من حياة الشعب الجزائري ، وها نحن أولاء نصل بعد « البيت الكبير » و « الحويق » إلى رواية « النساجة » التي صور بها فئة عمال النسيج الجزائريين . وقد ركز روايته في ورشة يعمل بها عدد من العمال وجعل محور الرواية كما في روايته السابقتين الولد عمر الذي تتفتح شخصيته على مظاهر الحياة القاسية التي يحياها بنو قومه ، ومعه أمه « عانية » تلك الأرملة المسكينة التي قضت حياتها في فاقة وجهود وبلاء وصبر على الفقر والحرمان لتعيل أولادها ، وهي في كل ذلك راضية ، مستسلمة لمشيئة الأقدار ، تستمد من هذا التسليم والخضوع قوة على مغالبة الشقاء ، فهي مثال للأم الشجاعة الفقيرة المخلصة لدور الأمومة التي يكثر أمثالها في الطبقات الشعبية وهي ذاتها التي أنطقها محمد ديب بمثل هذه العبارة : « لقد ولدنا على هذه الأرض اللعينة كما تولد المخازي ، وتغذيها الحثالة ، وهجرنا كما يهجر المبوذون ، حتى نخبزنا فهو أسود سواد الليل الذي يحيط بنا ! » .

تجرى حوادث الرواية سنة ١٩٤٤ إبان الحرب الأخيرة ،  
ولم تكن إفريقيا الشمالية بمنجى عن شرور هذه الحرب  
وويلاتها ، فقد ازدادت الحالة الاقتصادية والمادية سوءاً  
على سوء ، وعم الفقر والقحط ، ووقفت الأحوال ، واشتدت  
الوطأة على الكادحين وظهر الاستعمار في صورته السوداء  
الرهيبة .

ومن الطبيعى أن تكون مهنة الحياكة في بلاد مستعمرة  
كالجزائر كغيرها من المهن في مرحلتها البدائية أولاً ، وأن يكون  
أربابها في عصر الآلة والمعامل طبقة عمالية فقيرة محرومة تتجسد  
فيها معانى بؤس الجزائريين وعوزهم . ومن الطبيعى أيضاً أن  
تكون هذه المهنة مورد رزق لكثير من الأسر ، يتعاطى الرجال  
الناحية الفنية العملية منها- ويعمل النساء في ندف الصوف  
وغزله ، يعملن كعانية أم الولد عمر حين « كانت تجلب  
جزات من الصوف الملىء بالدهن ، والمثقل بالتراب والمصالة  
والبعر ، فتتنظفها وتحضرها ثم تحمل بعد أيام بقدر ما تسمح  
لها قوتها رطلاً أو رطلين من هذا الزغب الحليبي إلى سوق  
الغزل » .

وقد حلا لأحد الكتاب الفرنسيين أن يقارن بين حالة

النساجين في الجزائر وبين نظرائهم في فرنسا فوجد أن أحوال هذه المهنة سنة ١٩٤٤ تشبه تماماً ما كانت عليه في فرنسا منذ مائة عام ، فظروف العمل السيئة واحدة ، وبؤس العمال واستغلالهم دون شفقة أو رادع من قبل أرباب الغمل القساة الجشعين واحدة ، وإهمال الدولة لحقوقهم ورعايتهم واحد ، بل قد استطاع أن يجمع أقوالاً وأوصافاً لكتاب فرنسيين أحرار يصفون فيها هؤلاء العمال منذ قرن ونيف تطابق ما قاله محمد ديب في وصف مواطنيه ، ولعل أروع ما روى قول الشاعر هوغو عن لسان هؤلاء الكادحين :

منذ طلوع الفجر حتى المساء  
ونحن نقوم دوماً في السجن ذاته  
بنفس الحركة

جالسين القرفصاء تحت أسنان آلة كثيفة  
مستسلمين لعمل مضمن مرهق  
يمسك العمر بين براثنه  
عمل ينتج الثروة يخلقها البؤس  
أو قول دوبون في أنشودة العمال .

نحن في ثياب رثة نعيش في الحفر  
وتحت السقائف وفي الخرائب  
نعيش مع البوم ومع اللصوص  
أصدقاء الظلام .

نحن في أقبية مدينة « تلمسان » حيث ورشة المعلم ماهي  
بو عنان ، يعمل النساجون في مكان رطب يهبط إليه المرء في  
بضع درجات ، يتسرب إليه النور من كوة صغيرة في أعلى  
الحائط حتى بات القبو في شبه ظلام ، وبات من يعمل فيه  
« كالبوم عششت في قبر نصف مظلم » يعملون منذ طلوع  
الفجر حتى المغيب ، عملاً مضنياً ، متواصلاً ، يتقاضون عليه  
أجراً زهيداً يكاد لا يكفي ثمن الخبز « يمشون حفاة ، في قمصان  
وسراويل مهترئة ملوثة بالأصبغة ، يستحرون في النسيج بشكل  
ضار مغلق » .

في هذا المكان الذي ينطوي فيه العمر والبصر تمر الأيام ،  
وتنسب الساعات بين الكلل والملل من حياة لا غاية لها ولا طائل  
تحتها ، ولم يكن الولد عمر يعلم أن مهنة النسيج ستكون حلقة  
من حلقات بؤسه إلا يوم صدم لأول مرة حين رق صاحب  
الورشة لتضرعات أمه وقبل أن يشغله عنده في القبو فقد « هبط

عمر درجات السلم الأخيرة حيث وقف ، فوجد نفسه في وسط القبو ، فنشبت إلى أنفه رائحة رطوبية شبيهة بأنفاس بهيمة فلصقت بوجهه ، فكاد الولد يخنق ، وكان القبو معتماً ، وفي الحال أسف عمر على عهد الأزقة حتى صار يفضل التسكع تحت المطر المنهمر على أن يخنق في هذا المكان ، فتردد ، وتملكه ميل جنوني للصعود على السلم والهرب . ولما اعتادت عيناه الرؤية في القبو المعتم وجد أن العمال ينظرون إليه شزراً ، تبدو عليهم جميعاً ملامح الإعياء والاصفرار فصاح عمر : إن المعلم أرسلني لأعمل هنا حللاً للغزل .

في هذا القبو كانت تجري حياة هؤلاء العمال ، حياة رتيبة ، كثيبة ، يتخللها بين وقت وآخر ومضات من المرح والانطلاق وسرعان ما يعود جو القبو بعدها إلى سابق حالته من الكآبة والاستسلام إذ ليس من السهل كما يقول محمد ديب « أن يعتاد المرء على الضحك » .

إن من يقرأ الرواية لا يسعه — مهما أوتى من التجلد والقدرة على إسكات الضمير الإنساني — إلا أن يشفق على هؤلاء المساكين الذين سدت في وجوههم منافذ الأمل ، وضاعت سبل العيش ، وتوزعهم اليأس القاتل من جهة والتمرد الخافت الحائر

من جهة أخرى . فإن العم صقالى يقول لرفيقه بلهجة الحزين :  
 ما أكثر ما نتألم فى هذه الدنيا ! فيجيبه رفيقه حمدوش : ماذا  
 يفيدنا أن نؤدى عملنا بأمانة ، وماذا جلب لنا هذا العمل . . .  
 الريح . . . أما رفيقهما عباس فلم يكن أقل يأساً فهو بعد أن  
 استعرض حياته قال : « من الجائز أننا عرفنا بضع ثوان من  
 السعادة ، ولكن كم إلى جانب ذلك من أيام سوداء ، لقد  
 حرمتنا كل شىء ، وقلنا نصيبنا من اليأس وضربات القدر ،  
 فقد لقينا لقاء دقائق من الفرح محيطاً من المرارة . . . إن نفوسنا  
 شبيهة بهذا القبر يعيش الأحرار على سطحه وفى باطنه الأرقاء ،  
 وليس كسب قطعة نقود إضافية هى التى تهتم العبد الرق  
 ولا المطالبة بكسرة خبز . . . ! »

ولم يكن هؤلاء العمال كلهم واعين لحالتهم ، شاعرين  
 بانحدارهم إلى قرارة العبودية الاجتماعية ، بل كان منهم من  
 يعتقد أنهم خلقوا هكذا ، وليس من الممكن أن تكون إلى  
 جانب حياتهم أفضل وأحسن ، فهم يعيشون فى قدريّة مريحة  
 جعلت بعضهم يقول : « إن الله قد ولى وجهه عنا ، وكل شىء  
 تردى ، فإن الفقير غدا أفقر من ذى قبل والخبز أغلى ، تلك  
 هى حالنا . . . إننا سننال نصيبنا فى العالم الثانى ، يجدر بنا

ألا ننتظر من هذه الدنيا شيئاً .

على أن هناك فريقاً آخر أكثر وعياً وأصدق حساً ،  
تضطرم في نفوسهم ثورة نفسية عارمة ، عنيفة يستشفون من  
خلالها أحداثاً هائلة تعيد إليهم إنسانيتهم وحقوقهم المقتصبة ،  
ألم يقل أحدهم : « لقد هبطنا إلى الخضيض ، ولن نستطيع  
العودة إلى إنسانيتنا بالطرق العادية ، وسنجد على قلب العالم  
بل على إرهابه . . . إن شعبنا قد أهين وسيخرج منه شيء  
هائل . » وتتجلى هذه الثورة في شخصية المناضل عكاشة كما  
تجلت في الروايتين السابقتين في حامد سراج ، ويرتفع عكاشة  
هذا في شكوه عن مستوى السخط النفسي والتمرد الفردي والتفريع  
المزير لبني قومه إلى مستوى الثورة القومية الشاملة ، فهو كزميله  
حمزة يتفوه بأقوال معبرة عن الحالة الراهنة وعن الأحاسيس التي  
تجيش في الصدور بقرب الخلاص فهو بعد أن كان يقول :  
« إننا لا نعرف من نحن ، ولعلنا المخلوقات الوحيدة في الدنيا  
التي لا تعرف من هي ولا أين تسير ، وإذا سألت أية بهيمة  
فهي تستطيع إفهامك ما تريد ، ولكن نحن . . . إننا نمشي  
حفاة ، تلوح علينا علائم الاستياء ، وتكاد أسماؤنا لا تخفى  
شقاءنا ، وليس في رؤوسنا سوى الفتات وفي معدنا الدرن » إذ به



يقول بعد مدة : « أيتها الجزائر ! أين رجالك ، من ذا الذى يوقظهم من نومهم ، إنه اليأس الشعبى الكبير ، إنه اليأس الشعبى الكبير ! »

وتظل هذه الأفكار فى ارتفاع تصاعدى حتى تتبلور فى فكرة إصلاحية شعبية تخرج عن نطاق الأفراد والفئات والطبقات إلى نطاق قوى واسع يشمل الجزائر بأسرها ، لنستمع إلى العامل حمزة يخاطب رفاقه : « إن السياسة شىء معقد يعالجها كل حسب طريقته ، ويقول بعضهم إنه يجب إعطاء جميع الأراضى للفلاحين ، ويرى آخرون أن يعطى الفلاحون كل شىء وسنقسم بين أبناء الشعب بالعدل . وهكذا ترى أن السياسة تهتم برفاهية الشعب » فيجيبه عنكاشة المناضل « إن الشعب هو ملكوت السموات ، وهو روح الدنيا النقية ، ولم يعلم أحد الشعب ، ومع ذلك فهو يحمل الحقيقة فيه ، تلك الحقيقة التى يبذر بها بسخاء » .

ومن الغريب أن القارئ مع علمه بأن الحرب الدائرة اليوم فى الجزائر هى نتيجة حتمية للحالة التى كان يعانىها الجزائريون ، فإنه لا يلاحظ فى رواية « النساجة » أية إشارة إلى تلك الحرب ، كما أنه لا يلاحظ عند المؤلف أية نزعة صريحة لإبداء فكرة

أو مذهب بل ظل كغيره من كتاب الجزائر - ضمن العمل الفني -  
 ينقل إلينا عن طريقه واقع أمته وقضايا حياتها في إطارها  
 الإنساني دون اقتراح الحلول واستباق الحوادث ، وأعتقد أن  
 التعبير الجميل يفعل في النفوس ما لا يفعله سوق الحجج وبسط  
 البراهين ، وتعتمد الإقناع .

إن محمد ديب وصّاف ماهر ، ومصور مفن ، يجيد  
 التصوير الواقعي ، ففي رواياته صور قوية مكثفة تنطبع في  
 في مخيلة القارئ وتطفو على ما عداها من الحوادث والأشياء ،  
 ولعل من أروع ما تضمنته رواية « النساجة » منظر مواكب  
 المتسولين التي أتت من الجنوب إلى مدينة تلمسان بعد أن  
 مجردتهم السلطات والقانون الاستعماري من أراضيهم فقد أفاق  
 التلمسانيون يوماً فإذا بهم يضطدّون بهذه « الأشكال التي تشبه  
 الأطياف الغريبة ، كانت جماهير المتسولين تزحف ببطء  
 رجالاً ونساء وشيوخاً وأطفالاً فيحتلون المدينة ، وكان أكثرهم  
 سليمى البنية ، ولكنهم من البؤس والإعياء إلى حدّ أنهم لم يعودوا  
 بالنظرات الشرراء التي تضمّرها لهم عيون السكان ، وكانوا  
 يبدون إزاء المعاملة التي استقبلوا بها وقساوه رجال الأمن اللامبالاة ،  
 وكأن قوة نجهل مصدرها تدفعهم إلى الأمام ، وهكذا انتشروا

بشكل غريب مجرد عن الحياة ، فيه تردد وفيه سأم . . . وكان الناس يتساءلون عما إذا لم يكونوا قد تسللوا منذ أمد قريب حتى عجت بهم مسالك البلد الرئيسية وشوارعها وساحاتها ، لا شك ! في أنهم تسربوا إلى المدينة بفضل الأيام الماطرة السابقة .

ولم يعرف أحد الأسباب التي جذبتهم إلى المدينة ، هل جاءوا لطلب عيش افتراضى ؟ وعلى تخمين أنهم واجدوه ، فإنهم لم يتركوا البلد عائدين إلى أبحارهم التي لفظتهم فقد توطدوا في قلب المدينة ، ولذا لم يفهم الناس شيئاً هل يسرون فيها بدافع التطفل في الظاهر ، لا ، فهم يأتون ثم يحلون حيث يطيب لهم المقام ، ثم ينظرون إلى الأشياء بعيون مطفأة . . . »

« على أن في هؤلاء المتسولين وداعة وبعد عن الأذى ، ومن الإنصاف القول إنهم لم يقترفوا إثماً ، فهم ينظرون إلى المارة كبيرهم وصغيرهم بشيء من الزهد ، إنهم ينتظرون ، ماذا ينتظرون ؟ لا نعلم ، ثم يعودون إلى تسكعهم ، إنهم ينامون حيث يفاجئهم الظلام ، حتى إذا قص الهواء الجحوشد كل واحد منهم أطماره على جسمه ووضع رأسه على حجر أو درجة نام . »

« كانوا يشاهدون في كل مكان ، في الأحياء السفلى من

المدينة ، وتحت الأفاريز ، وعلى مقربة من الأسوار ،  
وأمام الحمامات وعلى الأدراج ، وفي أسفل الجدران التركية على  
طريق « المشوار » وفي مداخل الفنادق ، ففي كل الأسواق  
تتنقل أشكالهم المهلهلة القائمة القدرة ، يجرون أنفسهم في كل  
مكان ، يحمل بعضهم بعضاً على الظهر ، حتى إذا عجزوا  
عن السير ارتموا على الأرض لاهثين من التعب ثم يصطفون على  
الأرصفة ، ولم تكن ما تضمنته واجهات المخازن من ظرف في  
نظرهم سوى توافه لا يؤبه لها ، وماذا يهمهم فإنهم قد ضربوا  
جذورهم وانطفأوا كما ينطفئ المشعل الحامد .

وكان يخيل للناس بين وقت وآخر أنهم يفتشون عن شيء  
أضاعوه ، وكانت حركاتهم تشبه الزحف الخفي ، ثم لا يلبثون  
أن يعودوا إلى سكيتهم الأولى ، هم لا يمدون أيديهم للاستجداء ،  
وكانوا في الأصح متكديسين فوق بعضهم ، يجلسون القرفصاء في  
أماكنهم التي اختاروها ، هذا إذا لم يزحزحهم أهل المدينة عنها ،  
يلحظون منها حركات المارة . . حتى إذا حاول أحد أن يتصدق  
عليهم وجب أن ينحني ليدس قطعة النقود في باطن الكف .

« لم يعد هناك أي حاجز يحول دون زحفهم المتلاحق الذي  
أوصل جحافلهم إلى الأحياء النظيفة والأسواق التجارية وأقسام

المدينة الشريفة « حيث بيوت الأوربين التي تعكس أنوارها  
في الليل الحياة السعيدة الحادثة » يهيمون دون هدف ، ودون أن  
يأبهوا بالمطر المنهمر الذي يغرقهم كالمرق ، كانوا يهيمون وأحداقهم  
ميتة ، وأيديهم تستجدي بحركة عفوية ، يتفرون من مخابثهم  
كامدى الألوان ، ثم يعودون بعد لحظات من حيث أتوا كأن  
العدم الرطب قد قاءهم .

« وكثر عدد الأموات بينهم ، وكم مسكين لفظ نفسه  
الآخر دون دمدمة . . . وكان يفاجأ بعضهم وهو يزحف  
دون وعى نحو محباً مجهول ، ثم يغيبون عن الأنظار . . . إن  
هؤلاء الناس يودعون الدنيا باحتشام مثالي كأنهم بذلك يعتذرون  
عن موتهم » .

إن هؤلاء المساكين الذين أثاروا اشمئزاز الأوربين  
وتقززهم قد وجدوا عند مواطنيهم بعد أن زال الدهش والاستغراب  
من غزوهم المفاجئ كل عطف ورعاية ، وعندها تجلى التماسك  
الاجتماعي والشعور الأخوي الذي يوحد القلوب والمشاعر ويربط  
بين أهل الوطن الواحد برباط الكره للغريب المحتل أصل هذه  
الشروور والبلايا ، فقد كنت تسمع عندما تجمع الناس حول  
رجال الأمن يريدون إجلاء المتسولين عن البلد ، فكأن وجودهم

قد ذكر مواطنيهم بما هم فيه من بؤس وبلاء : « إن هؤلاء  
 المخلوقات ليسوا بحشرات ، وإنما الحشرات هم الذين غزوا هذه  
 البلاد فجعلوا إخواننا هكذا . » وقال آخر : « صدقوني  
 يا إخواني ! إن شقاءنا ليس ابن يومه ، فهو آت من بعيد ،  
 ولم القلق والذعر ؟ ! » حتى إن عانية أم الولد عمر كان لها نصيب  
 في التعبير عن شعورها فهي القائلة عند ما هب أهل البلد لفتح  
 أبواب دورهم لمساعدة إخوانهم المشردين : « هم إخواننا بالدم ،  
 وضيوف أرسلهم الله إلينا ، فأهلا بهم وسهلا ، نحن نضيفهم  
 ولو لم يكن عندنا سوى الماء ، فيعلمون بذلك أننا محرومون  
 مثلهم ، إن الرحمة لا تزال موجودة في هذه الدنيا ، ولن يقال  
 إننا طردنا أمثالنا لأننا نملك مأوى وهم لا يملكونه . »

إن هذا التساند العاطفي هو نقطة تحول في حياة الشعب  
 الجزائري ، بل التبشير التي تسبق الصبح المضيء ، وهذه كلها  
 دلائل على الوعي واهتزاز القلوب بالأمل ، أمل الخلاص من  
 العبودية والعودة إلى اعتلاء السلم الذي انحدر منه الجزائريون  
 إلى هوة اليأس والاستكانة والهوان ، فبعد أن قال العامل عكاشة :  
 « إن الحياة هنا كالرمال تملأ بها الأيدي ولا يبقى منها شيء »  
 وبعد أن يقول عباس : « إن حياتنا من الضيق والخرج بحيث

تجن بها بقعة ، إن حياتنا لسيئة سيئة جداً » أصبحنا نسمع حمدوش العامل يقول بلهجة العزم والجد : « كفانا عيشاً كما عشنا ، ولا قيمة بعد اليوم إلا للعمل » .

تلك هي الطلائع الشعورية التي مهدت للثورة التي يشب أوارها على أرض الجزائر ، ولاشك في أن شعب الجزائر التي قاسى من ألوان الحرمان والذل ، وتحمل ما لم يتحمله شعب على وجه الأرض من الاضطهاد والتنكيل ، لن ترهبه هذه الحرب الإفنائية بويلاتها وتضحياتها وسيظل مثالا للتضحية والجهاد ورمزاً للقدرة الإنسانية الجبارة التي تفوق كل تقدير ومقياس .

ولا أدل على هذه الروح المتوثبة من ذلك الحوار الذي جرى بين الولد عمر والعامل الثائر حمدوش والذي أودع فيه محمد ديب فلسفة الروح الجزائرية التي تقوم عليها دعائم الثورة :

— ليس المراد أن تحتقر الناس ، فهم لا يريدون أن تشفق عليهم ، أنت تريد لهم الخير في حين أنهم متعطشون للعدالة .

— ياله من استعداد سقيم ، هل تتصور سوء تأثير ذلك

عليهم ، إنه لا يرفع عن كواهلهم ذرة من البؤس ، إن الشفقة  
لعمل سهل . .

— أنت تكره الناس !

— أريد أن يتعلموا ألا يطلبوا سوى سعادة واحدة . . .  
الحرية .

— هناك سعادة العيش . . . العيش ولا شيء سواه .

— إنك تهذى !

— مع أن الناس جميعاً يبغيون هذه السعادة .

— ليس في هذا روح ، إن ما يلزمنا أن نتعلم من جديد .  
كيف تشعر بأننا أحرار ، ثم إن التعطش للعيش ينبت بعدها  
من جديد .

— يجب أن نفتح أعيننا ونرى .

— إن العالم قاس . . . إن جميع الذين ينزعون إلى أفكار  
سامية سمحة سيسحقون ، فلا عجب إذا رأينا الإغبياء يستولى  
علينا قبل بدء المعركة .

— لا تنس إن إخواننا رزقوا نعمة التكيف مع الحالات  
كلها ، وأن شقاءهم لا يؤثر فيهم أبداً .

— لست أدري ، إنهم في الواقع ينجلون ، فهم يكتمون



شعورهم ويخفون آلامهم .

— كلا ! هذا غير صحيح ، إن قلوبهم ميتة .

— يجب أن توقظ هذه القلوب !

— إن ما يلزمنا هو أن نتعلم الحقد ، وأن نكون قساة القلوب .

— هناك أناس يساعدون أمثالهم على أن يصبحوا أحسن حالا .

— ستكون واحداً منهم .

إن محمد ديب روائي موهوب ، وهو على عادته يجيد

التحليل والكشف عن خفايا النفس الإنسانية كما أنه يجيد تصوير

الشخصيات والأوساط الاجتماعية والمناظر المادية والعوارض

الجوية ، وأسلوبه في ذلك لا يقل نصاعة وحيوية عن أبطال

رواياته مما يجعل محمد ديب في طليعة كتاب الجزائر المعاصرين .

لنذكر بعض هذه الصور الموفقة ؛ قال يصف عانية

أم الولد عمر وهي نائمة : « نامت وقد أسندت ظهرها إلى

الحائط ، لقد عقصت منديلها ورفعته إلى قمة رأسها كصرة

حمام ، وهبط فكاهها وامتدت شفتاها في حركة نفخ واسعة » .

قال يصف الريح في يوم عاصف : « كانت الريح

تهب من الغرب تارة ، ومن الشرق أخرى ، تقفز قفزات كبيرة

محاولة تكسير المدينة ، ولكنها كانت تصطدم في ثورتها العمياء

العنيدة بجميع المنافذ فتجدها مقفلة منيعة .

وقوله : « كان زئير العاصفة يتلاشى في المجال الليلي » .

وقوله : « كان الضباب قد احتضن المدينة طوال الليل ، ولما أشرق الصباح سطعت شمس فتية في سماء كانون الثاني كأنها تلحس الأسواق » ومن تشبيهاته في وصف متسول : « وكان بعضهم وقد تجمع على نفسه كالقنفذة ينام بلا انقطاع » .

وقوله في وصف مطر غزير : « وكان المطر المتواصل يهز شعوره النهرية » .

وقوله في وصف العامل شول : « وكان شول الرجل الألط<sup>(١)</sup> ، النحيل ، ذو الوجه الترابي والشعر المقصوص يبدو كأنه مقشّة قديمة نتف قشها » .

وقوله في وصف عمر في ورشة الغزل : « كان يجر الخيوط كما لو كان يسحب أمعاء خروف مبعوج » .

وقوله في وصف ولد ميت مسجى في كفنه : « لقد تبين لعمر أن الكفن طويل جدا ، كأن الموت قد مط العامل الصغير وجعل منه الرجل الذي لن يكونه » .

إن رواية محمد ديب التي تصور ولادة روح الشعب الجزائري لتغني عن مئات الكتب والأبحاث التي كتبت عن الجزائر وقضية الجزائر .

(١) من مقطت أسنانه .

### ٣ - مولود فرعون

لنتقل الآن إلى كاتب آخر يدعى مولود فرعون يقص علينا حياته في جبال القبائل بأسلوب واقعي ، جذاب مؤثر ، وقصته في الحقيقة هي قصة قومه الفقراء الذين يعيشون في فقر ويموتون في فقر ، فلا يثورون ولا يتدمرون كأن هذا مصير طبيعي محتوم لكل إنسان على وجه الأرض ، ولذا توج مولود فرعون غلاف روايته « ابن الفقير » بعبارة للكاتب الروسي تشيكوف تعكس روح القصة وترسم الإطار الذي تدور فيه حوادثها « نحن نعمل لخدمة سوانا ، حتى سن الشيخوخة والعجز ، وعندما يدنو أجلنا نموت دون دمدمة وتقول في العالم الثاني : إننا ذقنا الآلام ، وبكيننا وعشنا سنين طويلة من المرارة وأن الله سيرأف بنا » .

وَألف مولود فرعون رواية « الأرض والدماء » وهي التي فازت بجائزة الأدب الشعبي في فرنسا سنة ١٩٥٣ ، انتزع بها الجائزة من خمسين كاتباً فرنسياً منافساً إياهم في ميدانهم وفي لغتهم ، وألف أيضاً كتاباً عنوانه « أيام القبائل » وهو

مجموعة أبحاث عالـج بها موضوعات اجتماعية فى أوساط القبائل فى الجزائر .

ولد مولود فرعون فى قرية تابعة لمديرية « فورناسيونال » فى منطقة القبائل العليا .

ويظهر أن مولود هذا كان فى بدء حياته راعياً أو على استعداد ليكونه ، ولكن الحظ حالفه فاستطاع أن يتعلم ويدرس ويفوز بالشهادة فيعين معلماً ابتدائياً فى قريته مما جعله يرتفع قليلاً عن مستوى بيئته وأن ينعم وذويه بشىء من اليسر المادى بعد الحرمان والجوع . فقصته إذن قصة هذا النضال الموفق ، بل هذا الوصول إلى هدف تنهى عنده مطامع صاحبه ، بل قصة شخصية رجل فى أدوار تكوينها ونمائها وارتقائها فى بيئة فقيرة منعزلة وشغل صاحبها بتحصيل القوت الضرورى عما عداه من أمور الدنيا .

وقد نالت رواية « ابن الفقير » شهرة بعيدة فى الجزائر أولاً ثم تعدتها إلى أفريقيا الشمالية كلها حتى غدت من الكتب الأدبية الكلاسيكية ، يدرسها الطلاب على أنها من روائع الأدب المغربى المكتوب بلغة فرنسية .

تجرى حوادث الرواية فى قرية نائية من قرى القبائل الجبلية ، وهى قرية أشبه بغيرها من قرى الريف فى الشرق العربى فى فقرها وخصاصتها وبدائيتها فالبيوت حقيرة ، والأزقة ضيقة ، معوجة ، يملأها الغبار صيفاً ، والوحل شتاء بنيت البيوت من اللبن وسقفت بالخشب والقصب والشوك ، وطلبت الجدران بالكلس ، وإذا نظر القادم إلى القرية من بعيد تراءت له بيوتها المترابكة كفقرات « عمود فقرى لحيوان هائل منقرض من حيوانات ما قبل التاريخ » وما سر هذا التلاحق والتراكب إلا شعور الفلاح من قديم الأزمنة بالوحشة والانعزال وما يصحبهما من خوف تجاه للطبيعة الجامحة ، والمناخ القاسى ، وحاجات الحياة ، على أن فى القرية بيوتاً جديدة تجلب النظر ، بناها أصحابها من المال الذى جمعه فى فرنسا ، فكانت هذه البيوت « بواجهاتها الصارخة وقرميدها الأحمر وسط البلى العام تنبئ عن ترف فى غير محله » .

إن حياة القرية كحياة كل فرد من أفرادها عالم مستقل صاخب فى أفراحه وأحزانه ومطامعه وتناقضاته وآفاته النفسانية ، إلا أنه عالم محدود ، غريزى ، بدائى يدور كله فى فلك الرغيف وبلغة العيش ، ويظهر أنه كلما كانت البيئة فقيرة ، كان

النزاع بين الأفراد أشد ، والصراع من أجل البقاء أقوى ، ومع أن الطابع العام الطبيعي للقرية هو المساواة وانعدام الفوارق ، فقد كان هناك فقراء وأغنياء ، فقراء لا يملكون إلا بجهد الأيدي ومتانة السواعد ، وأغنياء لم تتجاوز ثروة أحدهم بضع شجرات تين وزيتون وهكتاراً من الأرض الصالحة للزراعة وأحياناً ينبوع ماء في الحقل ، ولكن هذا كاف لكي يثير عند الفقراء الإعجاب المقرون بالحسد ، على أننا إذا أمعنا النظر وجدنا أن الفلاحة تجري في أرض جبلية كلها انحدارات حتى إذا جمعت المساحة وأحصيت الأطراف والشعاب لم تتجاوز المئة متر مربع ، يحرقها فدان لا يكبر الثور فيه الحروف الكبير ومع ذلك فإن التقاليد تقضى بأن يكون الأعور بين العميان ملكاً فليتكلم هذا الملاك الغنى في الاجتماعات بصوت عال وليكن السيد المطلق في بيته ، وليحتفظ بالسلطان والإعجاب اللذين هما المظهر المرئي للثروة ، إذ لولا هذا المظهر المعنوي لما امتاز ممن لا يملك شيئاً ، إذ أنه يعمل أكثر من الفقير ، يعمل مع عماله ويأكل معهم ويلبس مثلهم ويشاطرهم أتعابهم وإن كان لا يشاطرهم همومهم وأحزانهم .

في هذه البيئة الفقيرة حيث جرد أهل البلاد من أراضيهم الحصبة وحشروا في بقاع ضيقة يجهد أهلها لاستنباط الخيرات

من الأرض الشحيحة ، يصبح الفقر مصدراً للآفات الاجتماعية  
ويصبح معه القوت اليومي قضية أساسية يتركز عليها سلوك  
الأفراد ونمط حياتهم وتفكيرهم وتفاعلاتهم مع محيطهم ، وهكذا نجد  
أن أهل القرية التي ولد فيها المؤلف يتآخون ويتعاونون ويتناذون  
ويتحاسدون ويجوعون ويصبرون في إطار من الاستسلام لمشية  
الأقدار والرضى بالقليل والرزق المقسوم . والمهم في الأمر أن  
مولود فرعون أو فورولو كما سمي نفسه شهد النور في قرية  
الجبيلية وشهدت هذه مراحل حياته منذ كان طفلاً يحبو إلى  
أن أصبح معلماً ، وتطل علينا من خلال روايته شخصيات  
تمثل كل واحدة منها دورها الحقيقي دون تكلف أو تصعيد بل  
في واقعية قريبة جداً من الحياة ، وقد أبدى مولود فرعون في  
روايته هذه موهبة نادرة في فهم النفوس وإحساساً نفاذاً قادراً  
على الاندماج والتقمص في أبطاله وتحريكهم من الداخل  
والخارج وبث معاني الحياة فيهم . ومن هؤلاء الأشخاص من له  
دور أساسي تتجمع فيه العناصر الهامة ومنهم من هو ثانوي  
يظهر بين وقت وآخر ليكمل صورة أو يمثل دوراً أو يدعم  
فكرة أو يبدى وجهة نظر ، وحياة الكاتب كحياة كل قروي  
نحالية من الضجيج في العالم الخارجي إلا أنها غنية من الناحية

النفسية ، كما أن طفولته وإن لم تكن سعيدة فهي ليست تعيسة على وجه الإجمال ، فقد كان هناك في أسرته من يهيئ له السعادة وأجواء الحنان ويدفع عنه عوادي الزمان ، منهم أبوه رمضان وأمه فطمة وعمتاه خالتي ونانا ، أما أبوه فقد عمل وضحي من أجل أسرته ولم يدخر وسعاً على فقره من إدخاله المدرسة والقيام بنفقاته وهو كما وصفه « أسمر اللون ، قوى الجسم فيه صفات الفلاح القبيلي كمتانة البنيان وصلابة الأعصاب ، له جبهة مربعة وأنف أفطس صغير وشفتان رقيقتان ، ووجنتان عريضتان فيه عادة إغماض عينه اليسرى عندما ينظر إلى الناس ، وقد حاولت أمه أن تخلصه في صغره من هذه العادة القبيحة فلم تفجح كما حاولت أن يقلع عن عادة المشي بتثاقل كالدب لأن هذه المشية تعطيه في كل خطوة يخطوها شكل من يستعد لرفع حمل ثقيل أو ملاقاته خصم معتد » . أما أمه فطمة فهي قصيرة القامة ، صفراء الوجه ، هزيلة ذات وجه طويل ووجنتين ناتئتين ، نظراتها وديعة ملأى بالكآبة المحببة ، ولا تجيد من أنواع سوى طهي « الكوسكوس » .

وهناك عمتاه اللتان تحبانه وتعطفان عليه كثيراً ، تقطنان في بيت صغير أشبه « بعش مدور مظلم » ولكن الداخل إليه



يشعر بحرارة الألفة الهادئة حتى لكأن الجدران تمسك في كل حركة من حركاتك ، فيخيل إليك أنها تداعبك ، وأن الأثاث يبتسم لك في الظل . »

وقد لعبت عمته دوراً كبيراً في حياته ، حتى استغرقتنا جزءاً كبيراً من روايته وسط الحوادث الكثيرة التي قصها علينا ، فهما مدرسته الأولى التي تكونت فيها نظرته للعالم وركبت فيها أجزاء شخصيته ، وكانت عمته الكبرى تحكى له الحكايات في ليالى الصيف والشتاء ، ومن تلك الحكايات تعرف على حد قوله « على أخلاق الناس وأحوال الصالح والطالح والقوى والضعيف والماكر والسادج ، وكانت عمى تستطيع إيكائى وإضحاكى .. لأنها كانت تتأثر بالقصة التي ترويها ، وإذا سمعتها خيل إليك أنها تؤمن بكل ما تقول ، فهي تضحك وتبكي كابن أخيها ، وإذا كانت غقدة الحكاية محزنة جداً نمنا معاً تحت تأثير القلق يضم كل واحد منا الآخر من شدة الفزع وإلى أن يقول : « ... وكانت الحكاية تسيل من فم عمى فأشربها بنهم » .

وقد أجماد مولود فرعون تصوير الجوى الأسرى ببراعة فائقة فأطلعنا بأسلوب سهل طبيعى على لوحات من حياة القوم ،

وإذا كانت الحياة طريقاً طويلة مزروعة بالحوادث والآفات والمصائب فإن من هذه الحوادث ما يعنّي عليه النسيان والعدم ، ومنها ما يظل حياً يعيش معنا ويكيف حياتينا الشعورية واللاشعورية ، وإذا كان ما قاله أحد الكتاب من أن « أفضل أجزاء العبقرية هو ما كونه الذكريات » فإن رواية مولود فرعون غنية بالذكريات الهادئة والعنيفة على السواء ، وكان من حسن حظ الكاتب أن هذه الذكريات محزنة وكئيبة لا لأن ذكر الفواجع والكوارث أوقع في النفس البشرية بل لأن الفواجع والأحزان تأتلف وهذه البيئة الفقيرة وهذا الشعب المعذب ، فهي أدعى للبراعة الوصفية والكمال الفني ، فقد مات أبوه بعد رجوعه من فرنسا من الإعياء والتعب ومن جراء جرح أصيب به في إحدى المعامل ترك فيه أثراً عميقاً يمتد من الصدر حتى أسفل السرة » وماتت عمته الأولى على إثر ولادة ، وماتت الثانية بعد أن أصيبت بالحنون حزناً على أخيها وهنا يتجلى فن مولود فرعون الوصفي قال يصف نهاية عمته الأولى : « لقد ماتت بين أذرع أخواتها بعد ليلة قضتها في عذاب ، تاركة حنيناً بارداً مسكيناً صحبها إلى القبر ، لقد ظلت بجثة الصغير معلقة بأمه منذ أول الليل ، وأخذت عزيمة « نانا » تخور شيئاً فشيئاً فيغمى عليها

في كل لحظة حتى لم تعد سوى حطام بشري ، وكان يسمع لأحشائها قضقضة فيسيل موج الدم فيسمع له صوت كقرقرة الماء يندفع من فم الجرة ، وكان بالإمكان نزع هذه الثمرة الحبيثة العالقة بأحشائها ، ولكن الله لم يرأف بعمتي فإن عمل الحياة يجب أن ينهى بالموت ، فدام احتضارها حتى الصباح ولفظت أنفاسها بهدوء مع آخر نجمة في السماء .

ويسترسل مولود فرعون في وصف المشهد ببراعة لا يجيدها إلا من عرف المصائب والآلام فألفهما : « ولا أزال أرى عمتي » نانا « وهي مسجاة على بساط عرسها ، مغطاة بقماش أبيض ، ووضع لها منديل أصفر يسند ذقنها ويحيط بوجهها ، وكانت عيناها مغمضتين وأنفها مكروزا ووجهها شاحبا كلون المنديل ، ويخيل للناظر أنها نائمة ، ولكن للنوم أشكالا ، فهناك نوم التعب ، ونوم العافية ، ونوم المريض المضنى المعنى ، والموت شيء آخر . . . والآن عندما أراها وأفكر بها جيدا ، وبعد أن شاهدت وجوهاً أخرى فإن وجه « نانا » خال من المعاني ، فليس فيه أثر للابتسام أو الثورة ، أو الألم أو الراحة ، لا شيء من كل هذا ، ذلك هو الموت ، فإذا مات عزيزٌ علينا فلن يربطه بنا شيء بعد ذلك ، وإن ثوباً تعلقه في مكانه الاعتيادي أبجدي

في بعث الذكرى من جثة الفقيد ، ترى ماذا يقول وجه « نانا »  
الحميل الذي أحبيناه جميعاً ، والذي يضحك لنا جميعاً ،  
لقد أخذ الموت كل شيء وترك لنا قناعاً لا يأبه بنا ينصبه  
كحاجز منيع تصطلم عليه آلامنا فلا يسمع لها صدى .  
هذا وفي الرواية مقاطع ولوحات عديدة توفر للقارئ متعة  
حسية يؤدي العامل العاطفي دوره في خلق الانطباعات القوية  
المؤثرة في النفس فمن ذلك قوله في وصف نظرات المجنونة :  
« رفعت إلى عيني لم أعرفهما ، عيني زائغتين تأبيان أن تتعرفا  
عليّ ، وكأننا تلمعان بين آونة وأخرى فتشعان بضياء غريب  
ثم تنطفئان فجأة بعد أن يجلهما حجاب كثيف لتغيبا في عالم  
مبهم ، ياليني المجنون إني لا أكاد أراهما حتي تجتاحني هزة  
إذ هما وحدهما يعكسان آلام الروح وتفتشان بحيرة عما فقدته  
القلب والدماغ » .

أو متعة عقلية وذلك بالدلالة على بعض القضايا والظواهر  
الاجتماعية كقوله في وصف حفلة صلح بين شجار وقع بين  
حين بدافع العصبية والأحقاد القديمة : « انتهى الصلح وأكل  
الكوسكوس وقرأت الفواتح الأولى عن روح الأحياء والثانية عن  
روح الأموات والثالثة عن روح الأولياء والرابعة للمزروعات

والخامسة لمجد الأسرة ، وكانت الأخيرة أحبها لقلب جمعتي وهي التي كانت تتلوها بحماسة .

أو متعة فنية بتسجيل اللوحات النفسية الحافظة كقوله في وصف مشاجرة نسائية : « في زقاق ضيق جرت معركة نسائية صاخبة ، مضحكة ، وكن في تجمعهن يشكن عنقوداً متحركاً متنوع الألوان ، حيث يمتزج اللون الأسود بلون القوط الأحمر ، وبينما كان الرجال يفرقون جموعهن كان بعضهن يشهن الفرصة لتوجيه ضربة غادرة أخيرة إلى عدوتها .

أو قوله في وصف نسوة كن ينظرن إليه فيشعر بالحياء والحجل : « كانت هن عيون كبيرة سوداء ، فكأن نظراتهن عندما تهبط على تجردني من ثيابي .

وهو في كل ما كتبه يدل على أصالة قوية هي أولى سمات الأدب الرفيع .

تتجلى موهبة مولود فرعون في وصف الريف ، فهو ابن الريف ، فيه عاش وفيه تكوّنت شخصيته ، ولعل نشأته في وسط الفلاحين قد أوجدت عنده هذا الإحساس بحياة الفلاحين ، ومكنه من دراسة أحوال أهل هذه القرى الجبلية النائية ، وتصوير عاداتهم وتقاليدهم وتصوراتهم وأنماط حياتهم المادية

والاجتماعية . أقول دراسة أحوال لأن رواية « الأرض والسماء »  
التي ألفها مولود فرعون قد تضمنت إلى جانب الناحية الروائية  
دراسة اجتماعية قيمة تكشف لنا أسرار هؤلاء القوم المنعزلين عن  
العالم الخارجي ، المنطوين على أنفسهم ، الراضين تحت وطأة  
العادات القبلية والعصبية العرقية ، ولو أردنا مقارنة هاتين  
الناحيتين الروائية والاجتماعية لرجحت الثانية على الأولى في  
الطرافة والمتعة .

ونخلاصة الرواية أن الشاب الجزائري عامر بن قاسي هجر  
قريته شأن أمثاله من أبناء قريته إلى فرنسا ليعمل في مصانعها  
ومتاجمها بعد أن باع أرضه ، وبعد غياب دام خمسة عشر عاماً  
عاد إلى قريته ليعمل في الحقل ، فوجد أن أباه قد مات ،  
وأن أمه كمومة تعاني الفقر والعوز ، وكان أثناء وجوده في فرنسا  
قد تعرف على فتاة فرنسية هي ابنة عمه « حملوش » من  
نخليلته الفرنسية « إيفون » فتزوجها وعادا معاً إلى قرية « أنجل  
نزمان » وقد أثارت عودته إلى القرية التطفل والدهشة والاستنكار  
عند الكبار والصغار . وبعد مدة من الزمن استطاعت الزوجة  
أن تتكيف مع المحيط الجديد وأن تعيش فترة ذاقت فيها طعم  
الهدوء والسعادة ، ولكن عامراً أحب ابنة عمه « شها » وبعد

حوادث كثيرة لعبت فيها الغيرة وتقاليد العرض في هذا المحيط  
المقفل قتل عامر وابن عمه سليمان زوج شهابا في انفجار لغم  
أرضي ، وعادت القرية إلى حياتها السابقة الرتيبة .

\* \* \*

عاد عامر إلى قريته بعد أن عاش في فرنسا متنقلا بين  
مدنها الصناعية ، فاستقبلته قريته الصغيرة بخصاصتها وبؤسها  
تلك القرية التي هي « مجموعة بيوت بنيت من أحجار وطين  
وخشب ، وهي في بدائيتها تكاد لا ترمز إلى تدخل يد الإنسان  
الساذجة في بنائها ، فكأنها بنيت لوحدها كما عرضت لساكنيها ،  
حتى إنها لتعتبر أعجوبة في هذه الأرض العاقلة التي اختلطت  
بها ، والتي يعيش عليها كل فرد من أفرادها حتى ينشئ به  
المطاف إلى نوم أبدي تحت بلاطة من الحجر الأسود . . .  
إننا لا نجد في القرية أي أثر للإنسان ، متينا أو ضحما ،  
معقدا أو جميلا يستطيع أن يتحدى به العصور ، أو يدل به  
على ماض مجيد ، بل نشعر هنا بجهد الإنسان المنعزل ، القليل  
الغناء ، الجلف ، المجرد عن الوسائل ، الذي يكسح ليعيش .  
والمفهوم أن هذا الجهد المتواصل لا يذهب أبعد من عمر إنسان ،  
ولذا كان التراث في هذه القرى ضئيلا ، وكان على كل جيل

أن يبدأ البناء من جديد ، وألا يشتغل إلا ليومه ونفسه .  
لقد تغير كل شيء في القرية حتى معالم الأشياء  
والمخلوقات لم تعد لها تلك البهجة فإن « الطريق التي تلتهمها  
الأشواك البرية قد أصبحت حقيرة ، والسنديانة الكبيرة التي  
تصور أنها ستكون عملاقة ، والتي كان يفكر بها كلما شاهد  
دوحة في فرنسا لم تعد تستحق أى احترام ، فهي هنا تنتظره منذ  
خمس عشرة عاماً بأوراقها الغبراء المتناثرة الموزعة ، وشكلها  
العجوزي النحيل الذي ليس فيه شيء من معاني العظمة ،  
لقد شاخت شجيرات التين ولكنها لم تكبر ، وهنا وهناك  
جذول يابسة ، وأغصان متكسرة ، وشجرة فتية شوهتها  
الحيوانات . . . إنه حقل كتيب !

أما السكان فهم هؤلاء الفلاحون التافهون الذين يعيشون  
كالنمل يشد بعضهم بعضاً ، يكتفون بالقليل ، راضين بنصيبهم  
كأنهم لا يشكون لحظة في أنه يمكن لهذا النصيب أن يكون  
أكبر وأحسن !

تلك هي القرية التي عاد إليها عامر مصحوباً بزوجه  
الفرنسية « التي تبدو عليها علائم الإرادة القوية كأنها مسلحة  
لمجابهة الحياة » وكان لابد له من أن يشعر بشيء من



الحجل لما تقع عليه عيونهما من مناظر التأخر والبداية ، فهو يشعر بما يشعر به كل من ذاق طعم الحياة الغربية وأعجب بنظامها ونمط عيشها ، فكأن السنين الطوال التي قضّاها بعيداً عن مسقط رأسه وأهله قد أوجدت هوة بينه وبين محيطه الأصلي ، وقد تستمر هذه العقدة طويلاً إلى أن يطبق عليه المحيط من جديد فتتلاشى المؤثرات والذكريات بفعل الزمن ولنسيان والعادات الجديدة المستردة فيحتل مكانه كفرد من أفراد القبيلة « ليس لغيابه الطويل من معنى سوى كونه فاصلة كبرى يستحيل عليهم تغيير معنى الحملة العام » .

كان عامر يشعر عند دخوله القرية بالحجل لمنظر « حماة الطين الزرقاء التي تنساب من أبواب البيوت ، في سواق رفيعة ، لقد خجل من كتل الغائط التي تنتن في الزوايا ، ومن هذه الجدران الشبه منهارة والمرقعة بحصر القصب ، بل من هذه الأكواخ الحقيبة القدرة التي سودها الدخان ، إن هذه المناظر كانت ناقمة على عامر لأنه فضح أمرها أمام هذه الأجنبية » . إن عامراً لم يخف عن زوجه هذه الحقائق ، فقد حدثها كثيراً عن الحياة في القرية كيلا ينتابها اليأس وتصدّمها الحيرة ، على أنه لابد للعائد من تعويض يخفف من الفوارق بين الحياتين

الأوربية والريفية البدائية ، وإلا لأصبحت الحياة شبه مستحيلة ، فإن عامراً لم يلبث أن عقد مفاضلة بين ما كان فيه وبين ما هو قادم عليه ، فما لبث أن علم أن البلاد التي أدهشته بعظمتها كان فيها « صغيراً ضئيلاً » . . فهو هنا يشعر بأهميته وقدرته على العمل واحتلال مكانه في عالم القرية ، ثم إن الالتزامات التي تحلل منها عند مغادرته قريته قد برزت أمامه من جديد ، فقد يحب ويبغض ، ويقلد ويحسد ، ويؤمن ويعمل حسب توجيهات دقيقة صادرة عن أسرته وأقربائه ، وهو شاعر بهذه التوجيهات عن طريق الحدس كما لو انتقلت إليه بالإرث لشدة رسوخها في أعماق نفسه .

وفي القرية أشخاص فرحوا بلقائه وأنسوا به ، إلا أن هناك شخصاً خفق قلبه لهذا اللقاء أكثر من أى قلب ذلك هو قلب أمه كمومة التي عاشت بعد موت زوجها على صدقات أهل البر والإحسان من أهلها وأقربائها ، فلما عاد جدد أملها بالحياة وأعاد إليها اعتبارها المفقود وكرامتها المهملورة ، وقصة كمومة مليئة بالجوانب الإنسانية التي أبدع مولود فرعون في إظهارها وتحليلها ، ولعل شخصيتها من أقوى الشخصيات المؤثرة التي عرضها في كتابه ومن أجملها إلى قلبه ، فهي « امرأة

عجوز ، فقيرة ، مسكينة ، مثقلة بالتجارب والسنين ، وهى تجهل أين وصلت من حياتها ، تزوجت فى وقت مبكر من قاسى أب عامر فعاشت ضمن أسرة كثيرة الأفراد ، وكانت الحياة صعبة فتعلمت الصبر والكدح وذاقت الظلم والأذى ، فكانت الضحية فى أغلب الأحيان ، ولكنها إذا سنحت الفرص<sup>١</sup> ترد على الأذى بمثله ، رزقت أولاداً ذكوراً وإناثاً ، وعرفت آلام الوضع دون عناية ، وعرفت أيضاً ليالى السهر والمرض وسنى الحرمان والجحود ، ثم كتب لها أن تشهد تمزق الأسرة فى القرية ، وتبعثرها فى المقبرة ، فلاقى أولادها أهلهم فى القبور ، وفى يوم من الأيام وجدت كمومة نفسها وحيدة مع زوجها وولدها عامر . . . فوضحت عندئذ المسألة ، إذ ليس أسهل عليهما من أن يربيا والدهما عامر ويجعلا منه رجلاً بأسرع ما يمكن ليعيل بعد ذلك أبويه العجوزين ، فأحيط عامر بالعناية والدلال ، وعومل ليس كولد وحيد بل كينبوع ثر للطمأنينة المقبلة والسعادة الشيخوخية الأنانية .

على أنه تبين فى النهاية لأبويه أن قوانين الكون تسير على خلاف ما يريدان ويشتهيان ، وأن التضحية والفداء عند الأبوين يقابلها المنع والأنانية عند الأولاد ولذا غدا هذا « القصر

المنيف الذى كان منه عامر فى حجر الزاوية يضيئه كالشعاع المنير وهما وسراباً خداعاً ، وأنه هذه الطمأنينة التى يجب أن تسيج أيامهما الأخيرة ، والولد البار الذى سيطبق لهما أبنائهما بعد مفارقة الروح الجسد أملاً ضائعاً من الأولى ألا يفكرا فيه ، لأن عامراً بعد سفره إلى فرنسا قد شغل بنفسه عن أمه وأبيه .

لم تكن كمومة براضية عن زواج ابنها ، وهى مؤمنة بأن هذه الأجنبية لا يمكن أن تكون زوجاً لابنها ، إن ما يناسبه هى فتاة من القرية نفسها ، وفى القرية كثيرات من الفتيات الجميلات اللواتى يرغبن به وهو الشاب الجميل الذى عاد ظافراً من بلاد الغربية يحمل ثروة لا بأس بها ، وكانت ظنون كمومة وتشاؤمها يذهبان بعيداً فى تحليل مساوى الزواج من الأجنبيةات ، وخطر هذا الزواج على حياة أولادهن إذ لا يبعد أن تصرع الأجنبية زوجها فى ساعة غضب غير آبهة بالقانون التى يساندها فى عملها ، وقد شارك أهل القرية كمومة فى اعتقادها فهم يشيعون بأن عامراً أصبح عبداً لزوجته ، وهمس آخرون بأنه اتخذ امرأة سيداً له ، وأشار غيرهم بشىء من الشماتة إلى أن الأجنبية عبء ثقيل على مالكها !

لقد اضطدم عامر بعقبتين : سكان القرية من جهة ،

وعادات القرية وتقاليدها ، فهو إن استطاع أن يذلل مصاعب الأولى ، فهو أضعف من أن يتغلب على الثانية . فإن نساء القرية لا « يردن الأجنبية » فهن قد جئن ليسلبن زوجاً لم يجدن أحسن منه في بلادهن ، فعلى الأجنبية إذن أن تتحمل متاعب هذه المغامرة ، وعليها أن تتحمل أيضاً الانتقادات الموجهة إلى سلوكها وطريقة لبسها وشكلها ولغتها ، وعليها إذا أرادت العيش بسلام بين ظهرانين التصامم عن الهزء والسخرية ، وشراء صداقات بعضهن بالهدايا ، وتملق الآخرات والظهور بمظهر التواضع والإيناس إلى أن تندمج تدريجياً في الرهط ، وهي طبعاً لن تدخله إلا من الباب الصغير .

وإذا رحنا نفتش عن صفات مشتركة بين هذه الأجنبية وبين نساء القرية لوجدنا أن ماري لم تكن أجنبية بالمعنى العادى لهذه الكلمة بل هي من عالم آخر يختلف تماماً عن عالمهن « إذ لم يكن بينها وبينهن من صفة مشتركة سوى الجنس » وكن يعرفن مقدار اعتزازها بفرنسيته وعدم جدوى المقارنة قائلات : « اعتبر نفسها أعلى منا قدرأ ، وهذا شأنها ونحدها ، وإن نذهب إليها لنقول لها رأينا فيها » .

على أن الذى جعل هذه الأجنبية ترضى بالحياة الحشنة

التي هي أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة هي أن حالها في فرنسا لم يكن بأحسن من حالها في القرية ، فقد كانت تعيش شأن الكثيرات من أمثالها العاملات اللواتي يدأبن ليلاً نهاراً لتحصل الكفاف وذلك في محيط جائر ، قاس ، استغلالي فيه أخطار الغواية ، ومآسى التفرير ، فقد تعذبت كثيراً قبل أن تلتق عامراً ، وتعاورها عدة رجال ذاقت منهم الحجر وألوان الغدر والخسة والخيانة ، فكان لا بد من الرحيل خلاصاً من هذه الحياة المرهقة ، إن كوخ الأم كمومة لم يكن أفضل من الغرفة المفروشة رقم ٤ في شارع باربيس في باريس ، وإن الذي تغير بالنسبة لهما هو الوسط ، إذ كانا يعيشان في وسط إنساني مادي بل في منزلة خادمة أو جارية من الرقيق الأبيض ، أما الآن فهي في عالم صغير محدود يرفعها إلى المقام الأول ، وهكذا ودعت بمجيئها إلى قرية « نزمان » عهد الذل والانحطاط .

إن نظرتها قد تطورت ، فهي ترى نفسها جميلة بين أولئك الفلاحات ، جميلة أكثر من أية مرة ، فإن أثواب الخدم التي ترتديها تبدو بالنسبة لثياب القرويات فاخرة ، أثابها البسيط جدير بالإعجاب !

لقد كانت هناك عوائق أولية تمنع اندماجها في المحيط

الحديد تتجلى في هذا النفور والحذر الذى يقابل بهما الأجنبي  
 فى البيئات المقفلة ، فقد كانت تعتقد أنها وعامر يؤلفان  
 « زوحين غريبين ، متناقضين ، أضاع هو صفته القبلية  
 وأضاعته هى صفتها الفرنسية » فكان لابد أن تكون الخطوة  
 الأولى من جانبها ، فقد أرادت التكيف والمحيط بعمل إرادى  
 فيه كثير من التضحية بكبرياتها وكرامتها ، « فعاشت بقوة  
 مع هؤلاء النسوة اللواتى كن يدفعنها إلى فهم لغتهن ، وإلى أن  
 تجهود نفسها لإفهامهن ومجادلتهن بلغتهن ، فكان سلاحها فى  
 البدء الإشارات والحركات الموقفة حيناً وغير الموقفة حيناً آخر ،  
 وينتهى كلاهما بانفجارات ضحكية » .

وقد ظنت أنها ان تستطيع تفكيك هذا التداخل فى  
 الأصوات البحتاء الحلقية منها والحادة وهذا اللفظ السريع الذى  
 يتصف به اللسان القبلى ، « فكانت ترفع حواجبها ، وتبسط  
 عينها محاولة أن تفهم شيئاً مما يقال فتعجز حتى عن إعادة  
 ما سمعت » ، ثم إن هناك أصواتاً يستحيل لفظها لأن « لسانها  
 كان يعجز عن ملاحظة الشباب الدقيقة جداً والأساسية غالباً ،  
 فعلمت أن فى الدنيا أشياء خلاف الخمس وعشرين حرفاً  
 فى الأيجدية الفرنسية » .

وهكذا كلما مر الزمن ازدادت أنساً بمحيطها الجديد ،  
وتكشفت لها نواح كانت تجهلها فعلمت مثلاً أن وراء تأخر  
المرأة العربية وانحطاطها المادى والاجتماعى صفات إنسانية  
ومزايا خلقية تنطوى على الصبر والتسامح وسعة الصدر التى  
تحكم بها على ضعف النفوس ، وعلى رافة مستمدة من هذه  
القدرة العفوية واللامبالاة التى ليست سوى « تجربة لحياة  
لا حلاوة فيها » . وكانت مارى كلما توغلت فى تجربتها  
أطلعت على خفايا الحياة الزوجية فى الريف الجزائرى ، فهو  
عالم من الفضائل الخلقية والنفسية التى نقلها الفتح العربى وخلدها  
الإسلام فالمرأة هناك « مهذبة » ، فيها حشمة وحياء وخفر  
تستجيب لصنع المعروف . . . . . وهى تحت مظاهر الإهمال نظيفة  
لا تلمس الأشياء قبل أن تغسل يديها ، وتنتظر ميعاد الطهارة قبل  
أن تجيز لنفسها طهى الطعام . . . وهى فى كل ذلك رضية ،  
متواضعة شديدة الغيرة على عرضها وشرفها ، بعيدة عن الشهوة  
الجنسية والضلال الخلقى لأن المهم عندها ليس الحب بل  
الحياة ، فهى القضية الأساسية ، وكل شىء موقوف عليها ،  
ولذا كان نصيب هؤلاء القوم من المرح ضئيلاً .  
أما عامر فقد تطورت نظرته إلى الحياة ، فقد أكسبته



التجارب والأيام السوداء التي مر بها نضجاً واتساعاً في الأفق العقلي فلم يعد للناس في نظره تلك « الهالة المثالية التي تضيفها عليهم الطفولة ، شأن الورق اللامع الذي تغلف به الصور ، فهو يرى الحشونة والتجعدات والشقوق » أي أنه يرى الحياة في صورتها البشعة الخفية .

لقد عاد من فرنسا مستجيباً لنداء الأرض ، حاملاً معه تجاربه التي هي في الوقت ذاته تجارب العمال الجزائريين الذين يعيشون في فرنسا منذ بدءوا في الهجرة إليها قبيل الحرب العالمية الأولى ، فهو لن ينسى مثلاً هؤلاء العمال الذين « يتكدسون في غرف أو أكواخ صغيرة ضيقة في نهاية الزقاق قريبة من خنادق المجارى الكبرى . . . هم أقل العمال أجوراً ، وأقلهم ثقافة ، وهم أحوج من غيرهم إلى التساند والاتحاد . يتقاتلون ويحسد بعضهم بعضاً ، ويشي بعضهم ببعض ، وجدوا في فرنسا مسرحاً لإيقاظ عصبانيتهم القبلية وعنجهيتهم والتفاخر بأنسابهم وقبائلهم . يتجمعون هنا وهناك في شكل مستعمرات ، يفترون على أنفسهم ليشترى أحدهم فيما بعد قطعة أرض من جاره في الجزائر ، أو قسماً من باحة ، يهلكون أنفسهم كالذباب ، بنحلاء ، سيئو الطبع ، فيهم ذلة ومسكنة ، يعود العائدون منهم إلى

بلادهم وقد ملأهم الغرور والأنانية ، أما الباقون ، فيعيشون في  
سفه ، يبذرون أبورهم ، فهم في يؤس مقيم ، يلومون القدر  
وأهم أخرى بأن يلوموا أنفسهم .

إن هذا البؤس الذي تردى إليه المهاجر الجزائري لا يمنعه  
من تلبية نداء أرضه الملح مهما بعدت الشقة وامتد الهجر وتوزعت  
البلدان ، فهو حب أصيل تمكن من نفسه ، ففي هذه الأرض  
دفن الآباء والأجداد ، وبعثت الذكريات وحنّت القلوب ،  
إن حب الأرض وعدم التفريط بها يقسران إلى حد بعيد هذه  
الضراوة التي يدفع بها الجزائريون جحافل المستعمرين عن  
أرضهم ، فهي جزء من كيانهم وعلى ضوء هذا التعلق الصوفي  
بأرض الوطن تفسر النزعة القومية الجزائرية ، ومن الطبيعي  
ألا يغفل كتاب الجزائر هذه الناحية فنحن واجدوها تقريباً  
في كل آثارهم ، وفي « الأرض والدماء » مقاطع رائعة تتجلى  
فيها هذه النزعة في نفوس القوم قال الشيخ رمضان لابن أخيه  
عامر : « إن أرضنا متواضعة ، فهي تحب بنينا وتعوض عليهم من  
حيث لا يدرون ، كما أنها تتعرف على بنينا ، وعلى الذين  
خلقوا من أجلها وخلقنا من أجلهم ، فهي لا تدفع الأيدي  
البيضاء والكسالى والضعفاء فحسب بل الأيدي المرتزقة التي تريد

استنفاد خيراتها دون أن يحبوها ( وما عليك إلا أن تشاهد حالة  
 حقول الأغنياء التي أوكل العمل فيها إلى العمال المأجورين  
 إن أرضنا ترفض الأيدي التي تدعى تزيينها وتجميلها ، ولا شأن  
 لها بالمخارف المجروقة ، والزهور النادرة والحواجز المستقيمة ...  
 إن جمالها يجب أن يكتشف ، ولذا يجب أن نحب الأرض . .  
 إن الوطن هو هذه الأرض التي يعيش الأحياء عليها ويأكلون  
 من خيراتها ، وينام الأموات تحت ثراها ، هو هذا التراث  
 الذي ينقله الأجداد للأحفاد فينقله هؤلاء بدورهم إلى أولادهم  
 ترقبهم عيون الأموات وتشهد ما يفعلون لأن « الأموات دوماً  
 على أبوابنا ، يشهدون حركاتنا ، ويسمعون كلامنا ويعرفون  
 أسرارنا » .

إن الأوضاع الاستعمارية جعلت من الجزائر بلداً فارغاً  
 مجذباً متأخراً اقتصادياً يعيش أهله في مستوى معاشي وغذائي  
 منخفض لا يعادله في انخفاضه أفقر بلاد العالم ، وهذا ما يجعل  
 مشكلة الفقر والبطس من أعقد المشاكل التي يواجهها الواقع  
 الجزائري ولا أعتقد أن شعباً على وجه الأرض عانى ما عاناه  
 الشعب الجزائري من ألوان الحرمان ، والمنع والتقنين ، حتى  
 أصبح الفقر والجوع صفتين في طباعه الأصيلة ، وقد انعكست

هذه الظاهرة على آثار كتاب الجزائر ، فلم يخلو منها كتاب أو رواية أو بحث ، واستطاع مولود فرعون هو الآخر أن يجلو عن مظاهر الفقر في القبائل الجبلية صوراً مرارة وحزن وتهكم ، بل استطاع أن يفلسف الفقر والحرمان بالنسبة للعقلية الريفية الجزائرية ، وأن يجعل من أبطاله فرائس ضعيفة مستسلمة للجوع شأن كمومة التي عاشت « تقتر على نفسها ، واعتادت ألا تأكل حد الشبع ، إن الجوع رفيق قديم . . والطريقة سهلة ، يجب أن نقلل من وجباتنا الغذائية تدريجياً ، ثم إن هناك الصيام الذي يرضى الله ورسوله ويظهرنا بمظهر الأتقياء ، ويعرف الذين ألفوا الحرمان أنه من اليسير تحمل الجوع ، فهم يفقدون الشهية تدريجياً ثم تنخفض التغذية ، ولكنهم لا يتألمون أكثر من الذين ينعمون بالغذاء فهي قضية درجات . . وبعد فليس الفقر عيباً ولكنه حالة من الحالات يجب مجابهتها كغيرها ، فله قواعده التي يجب قبولها ، وقوانينه التي يجب الانصياع لها كيلا يكون الفقير فقيراً سيئاً ، لأن الفقير هو الذي يعرف قبل كل شيء كيف ينتظر ، إن الله يعطي دوماً لمن يجيد الانتظار ، ولذا يفضل الجيران الأغنياء ألا يحلوا مكانه فيكتفون عادة بالعزلة ليأكلوا خلف أبوابهم المقفلة . » .

وهناك مقاطع تحلل نفسيّتي الفقير والغنى في هذه البيئة المحرومة ، بيئة الفقر الأصل المألوف والغنى العارض الغادر ، إن جل ما يستطيعه الإنسان هو أن يعيش بتحفظ ، ويسمى هذا عادة الحياء ، لأن في السعادة جانباً من العار ، وليس هذا العار في مشاهدة بعض مظاهر البؤس بل عندما تبدو على السعيد علامات احتقار الآخرين . . . ولذا يختفى الغنى حياء ليأكل جيداً ، ويختفى الفقير ليجوع على هواه ، ولكن الكثيرين لسوء الحظ يفقدون هذا الحياء ويصبحون مبغضين ، غير محترمين .

إن الفقير الممقوت هو الذي يثقل على الآخرين ، لأن الناس يضيقون ذرعاً من سماع شكواه الدائمة وعرض بؤسه في شيء من الرضى والإعجاب بالذات ، فينتهى به الأمر إلى ارتكاب أنواع النذالات . أما الغنى فيبدو بغيضاً عندما يحرم من نعمة التحفظ ، ونحن نقول : إن الغنى الواقع يجد دوماً عقابه ، ولا نقول ذلك عن سذاجة بل عن تجربة ، لأن لكل شيء في الدنيا ثمناً ، ولذا ارتسمت في أذهاننا تعريفات للفقير الجيد ، فهو الذي يعرف الانتظار ، ومن المسلم به أن الانتظار لأجل محدود ، لأن من يموت في البؤس دون أى تعويض يجد في الموت ذاته تعويضاً وعندها يقول

الناس : إن الموت قد أراح فلاناً ! فيكونون بذلك قد أدركوا  
الحكمة الأزلية !

إن وراء اللوحة الروائية في « الأرض والدماء » دراسة  
اجتماعية واقعية لعادات القبائل البربرية وتقاليدها واعتماداتها  
وأساطيرها التي نلقاها في البلدان ذات الرواسب البدائية التي  
تعيش على هامش الحياة الحضرية . إن المظاهر العامة لهذا  
المجتمع المقفل تتكون من « مجموعة من الدوائر الضيقة التي  
تحبس الناس ضمن نطاق الأسر والقرايات ، وتجعل من  
القرية قفصاً يعج بالناس حيث يلاصقون ويرصد بعضهم بعضاً ،  
ففي فرنسا مثلاً ، في القرى الكبيرة والمدن الصغيرة والمراكز  
الصناعية فإن الأسر تأتي وتستقر ، ثم ترحل نهائياً ، ويمكن  
لأناس غرباء أن يتلاقوا ويعيشوا جنباً إلى جنب ، ثم يترقون  
بعد حين ، فهناك نوع من الحرية في الحرية ، أو شبه  
استقلال ، أو نوع من الأنانية التي تجعل من الحياة معركة  
حرة على الفرد أن يخوض غمارها وحده ، ضارباً كشحاً عن  
غيره إلا بالقدر الذي هو في حاجة إلى مصالحهم ، فقد يمدد  
أو يختصر علاقاته ، وينشئ لنفسه الضوابط ، في حين أن  
الحالة في القرية القبلية مغايرة تماماً ، فالقرية وحدة اجتماعية

وجغرافية معاً ، فإن أولاد العمومة يسكنون في حى واحد ،  
والأسر مستقرة دوماً في أحيائها ، وإذا صادف وهاجرت إحدى  
الأسر إلى مدينة من مدن الجزائر فمن النادر أن يسمح لأسرة  
غريبة أن تحل محلها في القرية ، إن القرية جزء لا يتجزأ ،  
يعرف أفرادها بعضهم بعضاً منذ أجيال .

وفي الرواية أشياء طريفة عن عادات القبائل واعتقاداتهم  
مما نجد مثله في أرياف الشرق العربى ويكفى بأن تعلم بأن  
« العقم عند الرجال والنساء من علامم الغضب الإلهى ، وهو  
دليل على أن الذرية إلى انطفاء لأن أفرادها طغوا وتجهروا .  
وأن أكل «أحشاء القنفذة المشوية» مدة سبعة أيام مخلوطة بالعسل ،  
أو الفطائر المغمورة بحليب الكلبة . وأن حشيش « المحجنون »  
الذى لا يعرفه إلا القليلون ، وأن بقايا حشفة ختان الصبي كلها  
مفيدة للحمل . وأنتك إذا أردت إخماد فتنة بين فريقتين  
فما عليك إلا أخذ حصاة والبصق عليها ووضعها على الأرض  
من الجهة المبللة ! » .

وغير ذلك من الأشياء القائمة على الغيبيات والتماس روح  
الأجداد وعبادة الأولياء والصالحين والإيمان بالتنجيم ورجم  
الغيب وجميع مظاهر الحياة اليومية مما يضاف على الرواية صفة

وثيقة اجتماعية قيمة تكشف عن أسرار هؤلاء القوم .  
وقد درجت على عادة إيراد بعض الصور الأدبية والفنية  
الى وفق الكاتب في إيرادها ودونك بعضها :

قال يصف رمضان وزوجه سمينة وهما جالسان أمام  
الموقدة : « كان الزوجان جالسين على ضوء جمرات حمراء  
يغطيها غشاء خفيف من الرماد ، وكان البيت مغموراً بالظلمة  
وشعر رمضان كأنه في قبر حيث لا شيء حتى إلا هذه الموقدة  
التي تنهار وتموت بدورها قليلا قليلا . كانا صامتين ، حتى  
إن رمضان نسي جسمه المتعب ، ثم أخذ يحدق في لهبه صغيرة  
تراقص بين جمرتين ، مترددة ، شفاقة ، شفاقة كحجاب  
خيال مليء بالأسرار والأهواء ، فهي تارة تتوضح وترسم وتغلف  
بشره بقايا جمرة ، وتارة لا تتوصل جهودها الضائعة إلا في  
أحداث لولب صغير من الدخان ، فيلاحظ رمضان تكون  
كمية من الرماد على الجمر .

إن الحياة هكذا ، فهناك لهيب ينبع ويرتفع ثم يرتفع .  
ولكن الرماد ذا اللون الصوفي يغطي في النهاية الجمر ، وفي الصباح  
تجمع ربة الدار حفنة من الغبار الأبيض وتملاً «كانونها» بالأعواد  
الصغيرة الخافتة لنار جديدة ولهيب جديد يعقبه رماد جديد ! ! .



وقال يصف ضوء المصباح في المنجم : « ابتعد الضوء الصغير وهو يرتجف ، وتبعه عامر بنظره فصار كلما ابتعد تناقص نوره تدريجياً حتى صار ضوءاً غير حقيقي ، يشبه النجم أو دودة اليراع وانطفأ تماماً . » .

وقال في رجل سمين : « كأنه كيس من اللحم المترهل ! » .

## ٤ - كاتب ياسين

ولد كاتب ياسين في السادس والعشرين من آب سنة ١٩٢٩ في إحدى مقاطعات قسطنطينة ، من أصل قبلي ، ودرس في مدرسة ستيف ، ثم أوقف وسجن في السادسة عشرة من عمره على أثر المظاهرات الدامية التي جرت في الثامن من مارس سنة ١٩٤٥ ، ثم أطلق سراحه بعد عدة شهور .

وفي حياة كاتب ياسين تواريخ هامة تشكل مراحل تكوينه العقلي وظروف حياته المعاشية والمادية . وتبدأ هذه المراحل سنة ١٩٤٦ بإصدار مجموعة شعرية بالفرنسية أسماها « نجوى » Soliloques لفتت إليه أنظار الأدباء في العاصمة الفرنسية ، وفي سنة ١٩٤٧ رحل إلى باريس ومكث فيها تسعة شهور ، وفي سنة ١٩٤٨ أقام ثانية في باريس ونشر في مجلة « مركور دي فرانس » قصيدة عنوانها « نجمة » وفي سنة ١٩٤٩ عين مراسلا لصحيفة الجزائر الجمهورية Alger Républicain ثم سافر إلى العربية السعودية والسودان المصري وآسيا الوسطى السوفيتية ونشر أثناء ذلك قصائد في باريس والجزائر . وفي سنة ١٩٥٠

توفي والده فحمل بعده أعباء أسرته ، وفي سنة ١٩٥٠ هجر  
 كاتب ياسين مهنة الصحافة واشتغل حمالاً في مرفأ الجزائر  
 وأعقب ذلك فترة عطالة ، ثم رحل بعد ذلك إلى باريس للمرة  
 الثالثة فاشتغل هناك خادماً في مزرعة فعاملاً زراعياً ثم عاملاً بناءً  
 ومساعداً كهربياً وغسّير ذلك من المهن المتواضعة . وقد  
 استطاع كاتب ياسين من سنة ١٩٥٢ إلى ١٩٥٤ أن يقف  
 بفضل إخوانه جل وقته على العمل الأدبي ، فأتم تأليف  
 روايتين ضخمتين هما « البخته المطوقة » وهي مأساة نشرت في  
 مجلة « اسبرى » سنة ١٩٥٥ ، ونجمة ، وهي موضوع  
 دراستنا .

إن هذه الترجمة الموجزة تعكس أهم الخصائص التي تميز  
 أدب كاتب ياسين ، فقد بدأ حياته كشاعر ينظم بالفرنسية ،  
 ثم احترف الصحافة ، تلك المهنة التي نقلته في أوساط وبلدان  
 مختلفة ثم أتيج له أن يسيح في بعض الأقطار الشرقية فاطلع  
 على أنماط من الحياة والنظم وأحوال الشعوب مما وسع مداركه  
 وزاده شعوراً بالحرية وتمسكاً بها ، زد على ذلك مزاولته المهن  
 المتواضعة واتصاله بالبيئات الشعبية والأوساط العمالية الكادحة  
 مما قوى روحه الثورية وزاد في خبرته وتجاربه . فحياته إذن

قسمان علوى وسفلى عالم الشعر والخيال والرمز وعالم المادة والحقيقة والواقع ، إن هذه الاثينينية تنعكس في روايته الكبرى « نجمة » فهي تجمع بين صفتين متلازمتين الواقعية والرمزية ، وهذا ما أضنى عليها طابعاً فريداً لا نجد مثيله عند زملائه من كتاب الجزائر مما جعله أقرب في الناحية الروائية الفنية إلى الكتاب الأوربيين كمارسيل بروسست وكافكا وفواكير الأميركى ، ولعل هذا الأخير أكثرهم تأثيراً في أدب كاتب ياسين .

ولا أدل على غرابة رواية نجمة من تلك المقدمة التي وضعها الناشرون يلفتون بها أنظار القراء إلى ما قد يخفى عليهم من أجواء الرواية ومراميها وأهدافها « فهي عالم غريب وغامض يلاقى القارئ فيه صعوبة كبيرة لجمع أطراف الرواية وتأليفها » فهي عبارة عن لوحات متعددة تناسب أمام القارئ فتنقله بخفة وسرعة عبر مشاهد وحوادث في إطار ممتدد مائع ، فالشخصيات متداخلة ، والمفاجآت مستمرة ، وقد تشغلك اللوحات والصور الخاطفة واللمحات التحليلية عن تتبع الرواية وتفسد عليك التسلسل الذي ألفته في الفن الروائي عادة ، ففي كل مرحلة يشعر القارئ بنوع من الانزعاج ويحاول جاهداً معرفة النقطة الأساسية التي تتفرع مأساة الأشخاص ، فالقصة

العامة المتطورة معدومة وكذلك التاريخ والتوسيع الإنشائي فهما غير محدودين في الزمان والمكان ولا يسيران في توغلها وتسلسلها حسب الطريقة الكلاسيكية والأصول الروائية المتبعة فإن الحوادث تجري وتتحول متحدية مقاييس الزمان والمكان ، فكأن أبطال الرواية كائنات لازمنية مجردة من الثقل الأرضي ، فكأن كاتب ياسين يزدرى الزمن ومفعوله التهديمي وسيره المطرد فهو بين وقت وآخر يجمد الزمن في لحظة أبدية ليعطيك بداية أو نهاية حادثة أو فاجعة فهو قد « بنى عالماً كوكبياً أقام في وسطه شمساً هي « نجمة » يدور حولها عدد من الكواكب الكبيرة والصغيرة لكل منها نجمة الخاص ، واثن كانت الشمس ثابتة ، وكانت تلتصق دائماً بالكثافة نفسها فنحن لا نعرفها إلا بانعكاساتها على الكواكب التي تحيط بها والتي تبعتها حركتها أو تقربها من نورها ، وكذلك الأمر في شأن النجوم ، ولما كانت جميع هذه الكواكب سجيئة الحركة نفسها التي تجعلها حاضرة. ينتج عن ذلك اختلاط تام بين الماضي والحاضر والمستقبل ، فالقصة تبدأ في لحظة معينة ثم تتطور وتقف وتعود إلى النقطة الأولى ، ثم تتخذ وجهة أخرى تسلكها ردهاً من الزمن قبل أن تعود إلى نقطة الانطلاق وهكذا

دواليك فنحن داخل حركة دائرية تسير فيها الرواية نهج الطي لا النشر لأن الانتقال من حالة إلى أخرى تجرى حسب انزلاق الفكر عبر خط لولبي دائمى . ولا تكفى صورة الحجر الملقى فى الماء لإيضاح الحركة فبدلاً من أن تشمل التوجعات مساحة ما فإنها هنا تضغط حجماً من الزمان والمكان ندرك جميع نقاطه فى نهاية الرواية<sup>(١)</sup> .

وخلاصة الرواية أنه كان يقطن فى مدينة بونة أربعة أصدقاء هم : رشيد والأخضر ومراد ومصطفى ، وكانوا قد تلقوا العلم معاً فى المدرسة وقد اشتركوا يومئذ فى النضال الثورى سنة ١٩٤٥ فطردوا من مدارسهم وعذبوا وسجنوا ثم فرقتهم ظروف الحياة بعد خروجهم من السجن وقاموا بمغامرات كثيرة إلى أن جمعتهم الصدف فى ورشة عمالية يشرف عليها مدير فرنسى كان يكره العرب ويضطهدهم ويتلذذ بتعذيبهم . وكان هؤلاء الشبان الأربعة يعشقون فتاة تدعى « نجمة » زوجة رجل اسمه كامل ، ويظل أصل نجمة مجهولاً إلى أن يتوصل الأربعة تدريجياً إلى اكتشافه ومعرفة الحقيقة ، فقد أسامت نجمة وهى طفلة إلى امرأة تدعى لالا فطمة فربتها حتى بلغت سن الشباب ،

---

(١) المقدمة ومقال الأستاذ نادو فى صحيفة « فرانس اويسوفاتور »

ونجمة في الحقيقة بنت امرأة فرنسية وأب جزائري حملت بها أمها في ليلة قضتها مع مراد ومصطفى في إحدى المغاور حيث قاداها هناك ، وعند الصباح وجد زوج الفرنسية - مقتولا في المغارة . والقاتل المفروض هو والد نجمة السي مختار .

وهنا يلزم رشيد السي مختار قاتل والده حبا بجلاء السر واكتشاف حقيقة نجمة التي قد تكون أخته ، وقد يكون السي مختار أباه . كما أن السي مختار هو أب كامل زوج نجمة ، ولم يستطع منع هذا الزواج السفاحي خشية اكتشاف سر ولادتها . وفي رحلة إلى الحجاز أطلع السي مختار رشيداً على سر نجمة ، واتفق الاثنان على خطفها من زوجها - أي من أخيها - وإرجاعها إلى قريتها الجبلية حيث تعيش بقايا قبيلة « قبلوت » التي دمرها الفتح الفرنسي وشرد أهلها ، وهكذا عادت نجمة على الرغم من مغامراتها ونسبها المشوب بالدم الفرنسي إلى منشأ فتغاب بذلك داعي الأرض ونداء العرق على جميع الملابس والحوادث والاعتبارات الاجتماعية والعرقية .

ولكى تفهم الرواية تمام الفهم من وراء الخيال الروائي ، والحاجب اللغوي المستعار يجب أن تقرأ على ضوء « الفكرة الجزائرية » والوجود الجزائري ، فهي قضية شعب مظلوم

ولكنه حاضر ، وفكرة وطن مفقود ولكنه ماثل في أذهان بنيه  
 « تحمله إليهم نسمة وحيدة تهب على البلاد ساقطها إليهم الغابة  
 والصحراء والبحر » .

وتكمن فكرة الوجود الجزائري في هذه الأرض التي يعيش  
 عليها الشعب الجزائري وفي الخيرات التي تكمن في أحشائها  
 والتي يمعن المستعمر فيها نهياً في حين حرم أهل البلاد من  
 القوت الضروري والحقوق الإنسانية البدائية .

وتتجلى فكرة الوجود الجزائري في هذه الصور الاستعمارية  
 القائمة عن الحياة الجزائرية في الحقول والمزارع والمدن وورشات  
 العمال والسجون ودور القضاء ، وتتجلى أيضاً في هذا الحقد  
 الذي يكنه أهل البلاد للمستعمر وفي الازدراء الذي يكنه المستعمر  
 لأهل البلاد ، وتشتد البغضاء بين الحاكم والمحكوم بقدر ارتفاع  
 الوعي القوي وانتشاره مما جعل أحد المتظاهرين يصيح في  
 بنى قومه :

إلام الانتظار ، إن القرية لنا  
 أنتم الأغنياء تنامون على سرر الفرنسيين  
 وتعملون في مستودعاتهم

أما نحن فلدينا أردب من الشعر ودوابنا تأكل كل شيء



إن إخواننا في ستيف قد ثاروا  
ولما نصح العقلاء المتظاهرين بالتزام السكون والاعتدال  
والاعتماد على الرؤساء لأن الشعب عاجز عن مقاومة الدبابات  
صاح المظلومون :

ليدلنا الرؤساء على الطريق  
لقد كفانا نوماً ، لنهاجم  
قلت له وجتى : إني ذاهب بلحب القمح  
أيتها الأيدي الحمراء ! كفاك نوماً .

وتتجلى أيضاً في قول النسي مختار مخاطباً رشيد : « يجب  
أن تفكر بمصير البلاد التي أتينا منها ، تلك البلاد التي ليست  
فرنسية ولا يرأسها باي أو سلطان . لعلك تفكر بالجزائر  
المحكومة وماضيها المبهم ، يجب أن تعلم بأننا لسنا بعد أمة ،  
ولسنا سوى قبائل مبعثرة ، ولم يكن إعزاز القبيلة رجوعاً لا وراء  
فهي الرباط الوحيد الذي بقي لنا لم الشعث والتلاقي حتى واو  
كنا نأمل أحسن من هذا . »

إن هذه القبائل المبعثرة المشردة التي هي صورة للجزائر  
المفككة الأوصال تجسدها في نظر كاتب ياسين قبيلة  
« قبلوت » التي غزاها الفرنسيون إبان الفتح وشردوا أهلها ،

ولكن الروح الجزائرية القائمة على التمسك بالأرض وحب الحرية كانت تحول دون فناء القبيلة إذ ما لبثت أن لمت صلاتها وقوت أواصر القرى والعصبية والتزاوج واعتنقت أسماء جديدة لتنجو من التنكيل بعد « أن تركت حفنة من الشيوخ والأرامل واليتامى على الأرض الملوثة لتخلد أثرها وذكرى القبيلة المصروعة » . . . وهكذا ترى أن القبيلة الصغيرة على صورة أمها الجزائر تنشد البقاء وتقاوم الغزاة مقاومة عنيفة حتى إذا حلوا أرضها غزتهم بدورها وتمثلتهم على مر الزمن .

إن فكرة الوحدة والنضال لها جذورها في الماضي تعود إلى زمن عبد القادر الجزائري وهو « الظل الوحيد الذي كان بمقدوره أن يمتد على الجزائر بأسرها ، فهو رجل السيف والقلم ، والرئيس الوحيد الذي يقدر أن يوحد كلمة القبائل ويرفعها إلى مصاف أمة ، لولا أن أفسد عليه الفرنسيون أمره وحالوا دون نضاله الموجه ضد الأتراك ، ولكن الغزو الفرنسي كان شرا ضروريا ، وتطعيماً مؤلماً يجلب بشائر التقدم إلى شجرة الشعب الجزائرى التى آذاتها ضربات الفأس » . فإن الفرنسيين شأنهم فى ذلك شأن الرومان والأتراك فلم يكن لهم من بد إلا يبتثوا جذورهم ، تلك الجذور التى هى رهائن الوطن الذى يتمخض ،

والذى يطمعون بخيراته ، والفرنسيون إذ يحاولون منع ولادة هذا الوطن إنما مصيرهم إلى الخذلان ، إذ لا بد لهذا الوطن أن يتحرر بدونهم ولا بد أن يطردوا منه ، وكما أن الجزائر ابتلعت الغزاة وتمثلتهم فإن الأرض العطشى ذاتها ستمتص دماء أمثالهم لتخلق منها جزائر فتية قوية تدب فيها الحياة الحرة المنطلقة من كل قيد.

\* \* \*

من مزايا أدباء الجزائر أنهم أبناء الأرض التى أنبتتهم ، فهو شهود حياتها ومآسيها ، بل هم المرآة الأمانة التى تنعكس عليها الحياة الجزائرية فى سموها وانحطاطها وجمالها وقبحها ، ولذا حفلت رواية « نجمة » — إلى جانب الناحية الرمزية التى اقتضتها اصطلاحات الفن الروائى — بالصور الواقعية والملاحظات النفسية والصور الاجتماعية واللوحات التحليلية الموفقة التى تشهد للمؤلف بعمق نظره للحياة وغنى تجاربه عن الأشياء والناس . قال يصف يقظة القرية ونهوض العمال : « بدأ منظر القرية بعد أن نظفها الليل كثيباً ، مبتدلاً كمنظر مهرج مسح عن وجهه أصبغة التنكر ، وكان الفجر رطباً ومادياً لا تسمع فيه سوى خطوات متثاقلة ، وسعال متباعد ، وسلام يلقى فيرن صده ، تميزه هذه الاستجابة المنتزعة التى تغلب على الإنسان

عند صحوه من النوم . ولم يستجب المارة في مثل هذه الساعة إلى ردة عادة غسل الوجه فقد تجمعوا في « برانسهم » يطرقون بعصيتهم بانتظام يشكل يخالطه الغيظ والحمول ، فيدخلون الواحد تلو الآخر إلى خماره وحيدة حيث يستعيدون قواهم منذ الجرعات الأولى : إن القهوة تطرد التعب والبرد .

إن السماء لا تزال مكفهرة كالأمس .  
قال أحد الكناسين وهو منحني نصفين :

مع أن الوقت ربيع !  
فهز الفلاحون رؤوسهم ، وما لبثت الخمارة أن فرغت من الرجال بمثل السرعة التي امتلأت بهم . الكناسون والفلاحون العمال يتتابعون جميعاً على الطريق المستقيمة فأصبح سعالهم أقل يبوسة ، وضربات العصي أخف وطأة كأن كل واحد منهم قد استعاد ثقته بنفسه حازماً أمره لتهاذه كله !

وقال يصف سجون الجزائر حيث يلتقي الموقوفون أنواع التعذيب : « تقدم الأخضر تحت وطأة ضربات الشرطة ، فصرح بهويته ونسبه وغير ذلك من المعلومات الشخصية .

وظل رجال الشرطة يضربون :

وظل الضابط يقرأ ورقته .

— إذن إن السيد تلميذ ؟

— فشبق الأخضر قائلاً : نعم تلميذ !

— فعلق الشرطى سوطه على زناره ، وتناول حبلاً رطباً من على حافة حوض الماء ، وامتنع الشرطيان الآخران عن ركل الأخضر ، وأخفى هذا رأسه بين ذراعيه على محاذاة الأرض .  
لقد هبأ نفسه للتعذيب ، فهو لن ينكر اشتراكه بالمظاهرة ، ولن يبوح بكلمة عن المسدس الذى طمره فى الساقية ، وقد وطن نفسه — كوسيلة للنجاة — إذا اشتد عليه الألم على أن يبوح بأسماء طلاب من أنصار الفرنسيين الذين سيثبت التحقيق فيما بعد براءتهم .

لم يكن الأخضر يشعر بكل هذا إلا فى شكله العام المبهم ، فهو لم يعد يشعر برأسه ، وظلت بقية جسمه شبه سليمة ، وأخذ ألم بعيد وحاد يتوضع شيئاً فشيئاً فى خاصرتيه وركبتيه وكعبيه وقفص صدره وفكيه .

ثم تركهم الأخضر يعصبون يديه ورجليه ، ثم ثبت الشرطيان بين الحبلين دفعة خشبية طويلة من شأنها تثبيت السجين ، ثم حمل وقذف فى الحوض . لقد خدشت كتفه اليسرى ، فوجد فى جموده عن الحركة وسيلة لإبقاء نصف

جسمه غير مغمور بالماء في شكل زاوية قائمة ، وكانت الدقة  
قد هصرت ذقنه ، وكان الأخضر في انتفاضاته ليبرز رأسه  
رأسه يصل أحياناً إلى مستوى رجال الشرطة .

أغمض الأخضر عينيه .

فشعر بشيء بارد يضغط على شفثيه عرف عند المذاق  
أنهم وضعوا له حجراً كبيراً يصل حتى البلعوم ليمنعوه من  
إطباق فمه ، ثم وضعوا له شيئاً آخر استطاع أيضاً تحديد  
ماهيته : قطعة من أنبوب معدني يستعمل للسقي .

سالت المياه !

فلم يعد يستطيع الاحتمال .

لم يعد باستطاعته أن يشرب أكثر مما شرب .

وشعر كأن أعصابه جميعاً تتلوى ، وأن جرعة مثلجة

تقلب له أحشاءه

الماء يسيل .

وكان الضابط يزيد في إسالة الماء تدريجياً .

وكان الأخضر يزداد انتفاضاً .

— ياله من متوحش ، إنه يريد أن يقتل نفسه .

— هيا ! تكلم ، إنك شاب ، وسيطلق سراحك .

— من هم رؤساؤك ؟

— هيا يا ( . . . ) هل تريد أن تفتس ؟

لقد عزم الأخضر على البوح ، وأشار بإيقاف سيلان الماء !

— رؤساؤنا ؟ ليس لنا رؤساء ، نعم ، نعم ، سأتكلم ،

انزعوا أولا الأنبوب . إن رؤساءنا :

— إنه يسخر بنا ابن المومس !

— وانهاالت عليه الضربات .

— إن سوط الضابط لم تعد تكفى .

— وتناول الشرطيون حبالا رطبة أخرى .

وانهالوا على إخص القدمين كأنهم حطابون في غابة .

وكان الأخضر يسمع لهث الشرطيين .

وعرف لماذا استهدف الشرطيون إخص القدمين .

فثنى ركبتيه وغطس . . .

وهذه صورة عن القضاء الاستعماري : « قال مزيان :

ذهبت لاستشارة محامين كبيرين في قسطنطينة ، فبعت آخر

قطعة أرض لأدفع لهما أجرةهما ، بعد أن صرفت ما ادخرته

وأى على الدعوى وكانت الحكاية عبارة عن خطب ، وبعد

ثلاث ساعات كاملة أى منذ أن بدأ المحامى « كوني »

بالكلام ، أطرق القضاة وتهامسوا فيما بينهم ، وكنت عند كل مقطع أضع على طاولة الدفاع ورقة من فئة المائة فرنك ، وحاول الحراس إخراجى من القاعة ، وكان الترجمان ينقل بأمانة الكلمات المنتزعة من فم والدى ، وكان تأثر الحضور بادياً ، وبعد المرافعة ترك القضاة القاعة بنحطى وثيدة وكنت أبجد فى وجوههم سياء الملائكة بأثوابهم وقلانسهم الخبيثة . وكان المحامى « كوفى » يبتسم لوالدى علامة البراءة ، ثم عاد القضاة ، وكان الحكم . . . بالإعدام .

إن الرواية كتبت بمهارة فائقة ، فى خلال مائتين وخمسين صفحة استطاع المؤلف أن يستأثر باهتمام القارئ وذلك على الرغم من تشعب الحوادث وتعقيد الأسلوب الروائى . حقا إن كاتب ياسين . . . كاتب من الطراز العالى .



## ٥ - مولود المامري

من أدباء الطليعة في الجزائر ، جمع بين الموهبة الأدبية والنضال الفكري الواعي ، وهو واحد من الفئة الممتازة التي أسهمت في بلورة الثورة ونقلها من نطاق السخط الفردي والشكوى المبهمة والحيرة المضللة إلى ميدان الثورة الجماعية المنظمة والنضال الشعبي المركز ، كما عملت على إقامة الحدود الفاصلة بين القومية الفرنسية التي تحاول تمثل الشعب الجزائري وبين القومية الجزائرية ذات الخصائص والمقومات الروحية والمادية .

إن الكتاب الجزائريين يختلفون في طريقة إظهار معالم القومية الجزائرية والمناداة بوجودها ، ففي الوقت الذي نجد بعضهم يسلك طريق الإيحاء والتورية والتلميح الخفي والأسلوب الفني نجد آخرين ومنهم مولود المامري يتجهون نحو الصراحة ، منزلين قضية « الشخصية الجزائرية » والواقع القومي منزلة العقيدة والموضوع الأساسي في أدبهم آثارهم . ولا أدل على ذلك من جملة يقولها دوماً أحد أبطال رواية مولود المامري كلما سئل

عن سبب تصرفاته الغريبة : « أنا جزائري ! » وقد سبق مولود المامري في عمله الأدبي إلى التعرض لقضايا كثيرة لها علاقة بحياة بلاده وكفاحها الاستقلالي ، منها قضية الاستعمار ، فهو يرى أن الاستعمار ليس نظاماً سياسياً واقتصادياً مبنياً على السطو والعدوان والصوصية فحسب ، بل هو نظام يستمد فاعليته من نظرة رجعية تحتقر البشر ، وفلسفة لا تؤمن بالقيم الخلقية والمكتسبات الحضارية التي جاهدت الإنسانية عصوراً من أجل تشييدها والحفاظ عليها . ففي رواية نوم الرجال العادل يورد مولود المامري جملة على لسان أحد سكان القرية التي بطش بها الحاكم المستعمر الظالم ، وهذه الجملة بعيدة الدلالة على عقلية المستعمرين : « أعتقد أنك تحتقر الناس إلى حد بعيد ما دمت ترضى أن تحكمهم على هذه الشاكلة ! »

وتتصف أفكار مولود المامري بالنزعة التقدمية الثورية ، والوعي القومي الذي يقدس نضال الشعوب وتعتبره أساساً للتحرر من العبودية ، ولذا تراه يعتقد أن روح الجزائر النضالية لم تخمد على مر السنين ، بل تخللها فترات خمود ، خمود النار تحت الرماد ، فالنضال القومي ضد الاحتلال لم ينقطع منذ عبد القادر إلى معارك جيش التحرير ، وهو ينادى بأن الثقافة الفرنسية

إنما هي ستار يخفى وراءه المستعمرون غاياتهم ، وتسويغ للاستعمار نفسه ، وإذا عرفنا أن الشعوب المغلوبة كشعب الجزائر لم تنل من هذه الثقافة إلا النذر اليسير نظراً للعوائق التي أقيمت في طريق نشر العلم والمعرفة بينهم وحصرها في فئة ضئيلة ، أمكننا إدراك مقدار التضييل والتمويه الذي يغلف قضية الثقافة ويبعدها عن الأغراض النبيلة التي يجب أن تهدف إليها الثقافة الإنسانية الواسعة التي يجب أن تغدق على الشعوب دون حساب أو غاية أو غرض بعيد أو قريب سوى ترقية الإنسان وإعلاء شأن العقل والروح.

ولد مولود المامري في ٢٨ ديسمبر ١٩١٧ في قرية تاويرت ميمون في جبال البربر العليا ، وكان يعلم إلى جانب لغته البربرية بالفرنسية عندما غادر مسقط رأسه للالتحاق بمدرسة الرباط الثانوية ، ثم انتسب بعدها إلى ثانويات الجزائر وباريز ، واشترك مع الجيش الإفرنسي في معارك فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، ثم ترك الجيش ودرس الأدب في مدرسة « بن عكنون » في الجزائر ، وهو يقيم اليوم في الرباط بعد أن طارده السلطة الاستعمارية . وقد حدد مولود المامري موقفه من ثورة الجزائر في كتاب أرسله إلى صديق سنة ١٩٥٦ جاء فيه : « تطالعنا

كل يوم قائمة جديدة من القتلى ، وموجة جديدة من الحماسة ،  
 إنك تحدثني عن الأدب . . . . . كلا لم أعد أكتب منذ سنة  
 كاملة ، لأنني أعتقد أنه لم يعد هناك شيء جدير بالكتابة  
 اللهم إلا المأساة الكبرى ودماء الأبرياء بجميع الأبرياء الذين  
 يدفعون ثمن جريمة المجرم الوحيد وهو الاستعمار . . . .

والأمل العنيد ، ذلك الذي سوف ينبع من آلام الولادة ،  
 وآمل أن ينبع عن قريب ذلك الشيء الجديد الذي لا محالة  
 سوف ينبع من أرضنا . . . . . إنك تعلم أنني لا أدين الرجال بل  
 النظام ذاته . . . . . إن الرجال أصيبوا بالعقم لأن المشاعر التي  
 تلازم النظام الاستعماري لا تبعث الحماسة بل تقف كلها في  
 المستوى الأسفل والأكثر سلبية والأخطر والأبشع : إن الرجال  
 الذين يزدهرون في ظل الاستعمار هم المنافقون وتجار السوق  
 السوداء والخنوة والنواب المعينون والبلهاء في القرى والمنحطون  
 والطامعون على غير أساس والمخبرون والقوادون وأصحاب القلوب  
 السوداء ، ليس هناك في ظل الاستعمار قديس ولا بطل حتى  
 ولا الكفاءة التي لا يقدرها الاستعمار ، فالاستعمار لا يرفع  
 أحداً بل ينشر اليأس والجذب ، وهو لا يجمع بل يفرق ويعزل ،  
 الاستعمار يدفن كل إنسان في عزلة ليس فيها أمل . . . .

وقد ألف مولود المامري روايتين الأولى « التل المنسي »  
والثانية « نوم الرجل العادل » وتعتبر الأولى من أقوى ما أنتجه  
كتاب الجزائر ذوو التعبير باللغة الفرنسية ، فهي ترك أثراً  
وانطباعاً شديدين في القارئ بما تحويه من صور قوية عن  
قبائل البربر والوسط الذي تعيش فيه ، وتجرى حوادث الرواية  
في إحدى قرى الجبلية « تاسكا » ، فقد كان يعيش في هذه  
القرية قبل الحرب الأخيرة جماعة من الجزائريين عيشة عزلة  
وانقطاع عن العالم الخارجي ، يسودها الملل والبطالة والتناحر  
العاطفي الشديد ، حتى إذا جاءت الحرب كشفتهم لأنفسهم  
وفرقتهم أيدي سباً ، وتبدو من خلال الإطار الروائي العاطفي  
مظاهر هذا المجتمع البربري القبلي المعذب الذي حرم نعم  
الحضارة والعيش اللائق الشريف ، وسيطرت عليه العادات  
والتقاليد والغيبيات ، كما تبدو في الرواية مظاهر الحرب في  
أفريقيا الشمالية من سنة ١٩٤٢ إلى ١٩٤٤ وما جرت به على  
الجزائر من بؤس وعوز ونقص في الرجال .

\* \* \*

سأل أحد أبطال رواية مولود المامري صاحبه : « هل أنت  
في السجن؟ فأجابه أنا في الجزائر . قال : إن كلا الأمرين سواء ! »

فإذا كانت الجزائر سجنًا كبيرًا تحده أسوار الاستعمار ،  
وتكبل نزلاءه الجزائريين قيود المستعمرين وإرهابهم ، فإن  
قرية « تاسكا » في جبال البربر حجرة صغيرة ضمن السجن  
الكبير تبدو فيها الحقيقة الاستعمارية في شكلها السافر ووضعها  
الآليم ، كما تبدو الحقيقة الإنسانية في تناحر ناسها ونضالهم  
المادى وسوراتهم العاطفية في جو من الملل والكآبة والقلق النفساني  
والعوز والخضوع لوطأة العادات القبلية والتقاليد والعصبيات ،  
فالقرية على صغرها وبعدها عن المدن تعج بالحياة والمفاجئات  
وتناحر الشخصيات تؤثر في القارئ وتحمله على الاستجابة  
العاطفية والمشاركة الوجدانية مع الحوادث والأشخاص .

وفي القرية كغيرها من القرى جيلان ، جيل قديم متمسك  
بالماضى متصف بالقناعة والرضى بالمقسوم ، مؤمن بالغيبيات  
والقضاء والقدر ، وجيل جديد متعلم على الطريقة الأوربية ،  
متمرد على الماضى والحاضر معاً ، يأبى على الجيل القديم  
تمسكه بالقديم ، ساخط على الأوضاع الحاضرة ، ينشد حالاً  
مبهمة تختلف عن الحال الحاضرة ، ويتمثل الحديد في  
شخصيات مكران ، ومناس ، ومدور ، ووالى ، ورافع يمثل  
كل واحد منهم اتجاهاً في الحياة ويدورون جميعاً في حلقة

مفرغة من الملل والفراغ الفكرى الناشئ عن انعدام الغاية والانعزال عن العالم الخارجى ، ولعل أكثرهم تمرداً وتناقضاً مع محيطه هو المعلم ملود المتخرج من دار المعلمين فى « بوذريعة » ، فهو يمثل الأفكار الجريئة التقدمية ، والفردية المتمردة على التقاليد المحترمة والأوضاع المقدسة .

وكان من الممكن أن تجرى حياة القرية فى جو مقفل بعيد عن الصخب وأصداء المدينة لولا تلك الهزة العنيفة التى اعترتها من جراء الحرب العالمية الثانية وتجنيد شبان القرية واشتداد وطأة الحرمان على أهل القرية وقد أفاد المؤلف من تجربته الذاتية فى الحرب عندما صحب الجيش الفرنسى محارباً فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، فإن مآسى الحرب قد أبقت فى ذهنه وقلبه صوراً انعكست على روايته فشغلت ناحية مؤثرة منها .

فحوادث رواية « التل المنسى » تجري تحت تأثير حقيقتين :

ثابتة: وهى التقاليد الاجتماعية بما فيها من حسن وردى ،  
طارئة متحركة: وهى الحرب العالمية الثانية وانعكاسها على أفريقيا الشمالية ويتخللها حوادث ثانوية اقتضتها أجواء الرواية وحبكها الفنى .

إن قصة الحروب بالنسبة للجزائر قصة مروعة ، وهي  
لاشك واجدة في نفوس كتابها مكاناً مؤلماً ، لأن الحروب  
التي شنتها فرنسا في المستعمرات أو في الأصقاع الأوربية تحمل  
أعباءها البشرية أبناء الجزائر ، ، فما أكثر الدماء التي سفكت  
من فرنسا ولأجل فرنسا ، وما أكثر الضحايا الجزائريين الذين  
سقطوا دون غاية أو هدف ، ولئن بجت فرنسا من حروبها  
وبخاصة الاستعمارية منها فوائد ومغانم وأسلاف فإن الجزائر  
خاصة وأفريقيا الشمالية عامة لم تكن سوى اليتيم والحزن والدماء  
والدموع . على أن الجزائريين كانوا يتوهمون أن الحرب الأخيرة  
ستحمل إليهم تباشير الخلاص من حياتهم المعبدة وأنهم  
سيذوقون بعد علقم الاستعمار حلاوة الحرية ، وهم على معرفتهم  
بمساوي الحرب وثمنها الباهظ فإنهم كانوا يتمنونها ويتلهفون إلى  
حدوثها ففي كل قرية من قرى الجزائر كان « الناس لا يتحدثون  
إلا عن الحرب ، النساء عند العين وفي الطرقات ، والرجال في  
الساحة والمقاهي والأسواق ، وكان الناس لأسباب متنوعة ودوافع  
لامنطقية غريبة ينتظرون بشيء من الزهو قدوم الحرب على  
الرغم من أنه لن يصيبهم منها إلا الخراب ، وأخيراً فإن الحرب  
حادث أساسي ، لأن الأرواح تزهق فيها ، وهي أيضاً حادث



هام لأنها تصيب الناس جميعاً برشاشها فتكسر بذلك رتبة العيش ، كأن كل واحد قد مل الانتظار ومعرفة اليوم ما شاهدته بالأمس ، فكانوا بذلك يريدون عبء قبولهم الصريح أو الضمني سرعة الاتجاه الجنوني نحو الحل السخيف ، والحق أن كل شيء كان يدفعهم نحو ذلك : دعاوة الصحف والإذاعة والإشاعات ذات المصدر المدروس بدقة وأخيراً . . . البؤس ، بل هذا الجبن وهذا العوز اللذان هبطا منذ سنين على قرية « تاسكا » وبقية القرى الجبلية ، فلعلهم واجدون في الحرب دواء ناجعاً حتى أصبح الجميع يريدون الحرب أو على الأقل ينتظرونها بشيء من الإبهام .

حتى إذا دنت الساعة لسوق هؤلاء الشبان إلى المجازر لكي « يسمنوا الغربان في مكان ما من فرنسا وألمانيا » ارتفعت أمامك صيحات الألم المألوفة فقد كان « الأهالي يبيكون أولادهم كما لو وصلت أنباء موتهم في ساحات القتال ، وكان الليل يضخم ويردد دون انقطاع صدى ضراخ النسوة اللواتي سلبن أولادهن ، وكان الظلام يجعل هذه الصرخات أشد هولاً ، وكانت المشاعل تنبع من خلال الأبواب فتضيء هذه المرة جماعات تلمح بينها خيالات النسوة يلطمن وجوههن أو يقلبن كفوفهن ، ولم يعد

أحد يفكر بالتقاليد واللباقات وسط هذا الحزن الواسع العام الذي هبط على قرية « تاسكا » .

وكان من الطبيعي أن تعاني القرية في الحرب من صنوف الحرمان أضعاف ما تعانيه في أيام السلم ، فقد ازدادت المجاعة حتى صار « الناس يخرجون إلى الطرقات وبأيديهم البنادق يرجونك بأدب أن تقتسم معهم مؤونة الشعير التي تحملها إلى أولادك ، لأن أولادهم ليس لديهم شيء يأكلونه » ، وقيل إن طبيب المقاطعة فتح بطن شاب وجد ميتاً على قارعة الطريق فوجد حشيشاً غير مهضوم ! « واكتملت الصورة بزيادة أفواج المتسولين الذين كانوا « يتنقلون على الأبواب بأثوابهم الرثة وعظامهم الناتئة وأصواتهم الرخوة » . وحر الناس تجاه هذا البؤس المنتشر فقد « بلغ من كثرة الشحاذين ذوى العيون الفارغة الذين يجرون على الأبواب أرجلهم الدامية والمتشققة حتى ليشك الإنسان في مقدرة الله عز وجل على إشباعهم وإلباسهم ! » زد على ذلك غلاء الأسعار وجشع المرابين وضالة الأجور وتفشى البطالة واختفاء الحاجيات مما عاد بالحياة إلى عهود البدائية ، ولا تسل عن الردة النفسية في نفوس القرويين فقد كانت « الحرب تثقل بوطأتها على الأشياء فتجعلها أكثر

اختصاراً وأكثر كآبة « حتى إذا انتهت الحرب وعاد من  
الجزائريين من كتبت له السلامة والعمر الطويل وجدوا أن هذه  
الحرب لم تحدث تغييراً كانوا ينتظرونه ، فلم يفدهم تحمسهم  
للحرب واكتواؤهم بنارها ، كما لم يفدهم تحمسهم لستالين  
وتسميته بأبي الشوارب ، فإن الحرب لم تقض على القلق المسلط  
على القرية ، ولم تخفف من الفقر والبؤس بل زادت في وطأتهما ،  
فعاد الشبان من جديد إلى الهجرة طلباً للعيش « ففرغت الأسواق  
مرة أخرى من صخبهم القوى العنيف ، فأصبحت نظيفة باردة ،  
حتى إن الفتيات اللواتي لم يعد أحد يترصدهن على العين ينقلن  
عدداً محدوداً من جرار الماء في حين أنهن في الماضي كن يرحن  
ويجئن كأنهن كما يقول والى يفرغن جزارهم في أوعية مثقوبة . . .  
ولما حرمت العين والدروب من ضحكات الفتيات وعبهن أضححت  
كثيبة وهادئة كمحاكمات الشيوخ العقلية ! » .

وكان لابد لأهل القرية من أن يعترهم التشاؤم وأن  
يلتمسوا لهذا البؤس سبباً غيبياً يتناسب وعقليتهم ونظرتهم إلى  
الحياة ، فقد شعروا أن القرية « تعاني مرضاً غريباً لا يستطيع  
الوصول إليه ، فهو في كل مكان ولا نجده في مكان . . .  
وقد جربنا عبثاً جميع الأدوية ، ثم لم يعرف أحد منا سبب هذا

الداء ، هل أغضبنا وليا من أولياء الله ؟ أم هل تجاوز الشبان الحدود الأخلاقية ، أم هل فكر الشيوخ في مجالسهم تفكيراً خاطئاً أو اتخذوا تدابير ظالمة ؟ ففي سنتين متواليتين جفت الينابيع فصار علينا أن ننحدر إلى بطن الوادى لطلب الماء ، وأحرق البرد زرعنا ، وقد أطفأنا فى الصيف ذاته أربع حرائق فى غابات « أفران » لم يفصل بين حريق وآخر سوى أيام ، ولم يعد الأولاد يتشاجرون بل يجلسون فى حلقات فى الساحة كالشيوخ يتكلمون عن السيارات وأسعار الغلال .

وصارت نساء القرية يلدن الأولاد كالسابق ولكن أكثر المواليد من الإناث ، وكان يموت من المواليد عدد كبير وأكثر الوفيات من الذكور . . . . إن ربح النحس قد هبت على « تاسكا » . . . ولكن الأدهى من كل ذلك هى تلك الكآبة التى ترشح من الجدران ، وهذه الحمر البطيئة التى تهبط المنحدر فى « تاكوراقت » ، وهذه الثيران الناعسة ، وتلك النسوة اللواتى يحملن الأثقال ويؤدين أعمالهن كسخرة مبتذلة .

وكان من الطبيعى أن يكون للتقاليد والعادات والأوهام والحرافات مكان فى حياة القوم ، وأثر فى تصرفاتهم وسلوكهم ، وأكثرها من رواسب عصور الانحطاط التى نجد مثلها فى

الشرق العربي الإسلامى مع بعض الفوارق المحلية التى تميزت بها إفريقيا الشمالية كشيوع الطرق الصوفية وزيارة الأولياء لحل المشاكل اليومية المستعصية وارتداد الزوايا والتكايا ، لعرض الظلامات والشكاوى فإن الأولياء الذين هم وسطاء بين الله والناس يملكون نفعا وضرا ، ويملكون إنزال المصائب ودفعها عن الناس ولذا وجب الحرص على رضاهم والتضرع إليهم عند الشدائد ألم يقل أحد أبطال الرواية بأن البلاء الذى حل بالقرية سببه أن « سيدى مالك الولي الصالح الذى سهر منذ جوالى أربعة قرون على قرينتنا وقبيلتنا قد أهملنا ، حتى عم الذل والملل من العيش ، وفى الحق فإننا عملنا كل شئ لكى تحل اللعنة علينا ، ألم يقترح دلال الخيول عندنا يوماً على مجلس الشيوخ ألا تذبح الخراف والثيران كما هى العادة عند قدوم عيد الأضحى أو عند مقدم الربيع إذ قال بعد أن تساءل عن فائدتها : « إن هذه الضحايا تكلفنا كثيراً من الأموال » ثم إن هناك طالباً من الأزهر قد صرح بأن التضحية مخالفة للدين ، غفر الله له هذا الكفر ، فإنه صغير السن . »

ولعل النساء وبصورة خاصة العجائز منهن أكثر الناس إيماناً بالشعوذات والسحر والتنجيم وهذا لا يعنى بأن الرجال

بمنجى عن هذا الإيمان والتصديق فإن « موكران » الشاب المثقف لم ينبج من سلطان المحيط فقد أطلق امرأته التى يحبها نزولا عند إرادة أبيه لأنها لم تلد له ولداً ، وكانت قبل الطلاق صنعت ما تصنعه كل امرأة مثلها من الاستجارة بالأولياء ودخول حلقات الذكر ، وحمل سلة القش والطواف على القرى للشحاذة وغير ذلك من الوسائل . وقد كانت « عزى » زوج مكران تعتقد أن « العقم عند النساء عقاب على ذنوبهن » وكان هذا الاعتقاد « يدخل فى روع المرأة كالمثقب » . ولما وصلت عزى إلى مقام الولي ، نزعت نعلها وتقدمت نحو الضريح وقبلت الراية قائلة : « يا عبد الرحمن ! ثم مدت يديها مستعطفة مرة أخرى : يا عبد الرحمن ! لقد تركتني وحدى مجردة أمام مشيئة الله ! انجدني . . اعطني ولداً وسأطلق عليه اسمك » .

وكانت العجائز الجالسات فى حلقة حول الضريح واللواتى ينتسبن إلى الطريقة يرددن وبصوت واحد :

آمين ! بشفاعتك يا عبد الرحمن .

إن أمى هى من أتباعك ، وهى تدعوك ليلاً ونهاراً وتنشد كل يوم مدحك يا عبد الرحمن النساء .

وسجدت عزى طويلاً ، وظلت برهة ساجدة ثم ارتمت  
على الصريح فقبلته قائلة : انقذ بيتي من الدمار ، وثدي من  
العقم وسأنحر لك ثوراً يا عبد الرحمن الرحيم !

ف قالت لها العجوز : اطرقى برأسك يا بنيتي أمام مشيئة الله  
كيلا لا يترك الله وعبد الرحمن ثديك جافاً كينابيع الصيف ،  
فأطرقت عزى رأسها فوضعت العجوز يدها عليه مرددة  
ثلاث مرات : يا عبد الرحمن ! بارك هذين الزوجين حتى  
لا يصبح أحدهما عبثاً على الآخر .

ثم قامت العجوز تصلى ليستجيب عبد الرحمن دعاء  
الصبية وكان رفيقاتها يرددن بصورة آلية عند نهاية كل دعاء .  
آمين وكنت تقرأ في عيون الحاضرات الدهشة لجمال هذه  
المرأة ، ولم يفهمن كيف أن عاهة ظالمة تصنع هذا المقدار من  
الآلم في جسم تام الحلقة ! » .

وإذا أردت أن تحضر إحدى حلقات الذكر التي أبدع  
المؤلف في تصويرها فاسمع ما يقول : « ثم نهض الجميع لكي  
يفسحوا المجال في الوسط ، ثم تقدمت امرأة عجوز من اللواتي  
جهن للقيام بالحضرة تقودهن واحدة واحدة إلى منتصف القاعة

فيتكدس في كتلة كبيرة حية ، حتى لا يكاد يتميز  
سوى قطع القماش لأن الجميع أرخين رؤوسهن .  
وأخذت الموسيقى تصدح ، موسيقى وحشية ، رتيبة كضربات  
المطارق عنيفة تارة وحلوة ناعمة كالقبلة تارة أخرى . وفي كل  
زاوية رجال ونساء تهزهم القشعريرة ، وكان ينقون كالضفادع  
من كل مكان ، ويحركون الأكتاف بصورة تشنجية على  
نغمات الكمان ، حتى إذا سمعت سحبة أخرى من قوس  
الكمان رمى عدة رجال برانسهم وصرخوا كالوحوش الضارية ،  
وقفزوا وسط القاعة يرقصون ممسكين أيديهم ، وكنت تسمع  
أثناء الرقص قبضة عظامهم . فإن النساء والرجال والشبان  
والشيوخ الذين شد الهذيان من قواهم قد أخذوا يرقصون بعنف  
مشكلين حلقة حول كتلة النساء العقيات دائرة هذيانية .  
ودامت الحاضرة ساعة ، وكانت عزى تسمع سقوط كتل  
أجسام الدراويش التي أنهكها التعب فيحملهم إخوانهم إلى  
زاوية المكان بعد أن يكونوا قد غطوا بالبرانس أجسادهم المتصبية  
عرقاً ، وبعد ساعة لم يبق منهم سوى اثنين ، فنادى صاحب  
العمامة الزرقاء وأصحابه كأنه آت من الأعماق وأمرهم بإخماد  
الرجلين الهائجين ، ثم علا أنين الكمان كأنها دقات بلورية



متباعدة مؤذنة بنهاية الحضرة وحصل الصمت العميق مكان الضجيج ولم يعد يسمع من بعيد سوى أنين الدراويش المنبعث من مختلف الزوايا .

وهناك لوحات أجيد صنعها تجمع بين روعة الفن التصويرى والوثيقة الاجتماعية مما يجعل من « التل المنسى » رواية جبال القبائل الجزائرية التي يجهل القارئ العربى عنها أشياء عن عاداتها ونمط عيشها وأحوال أهلها .



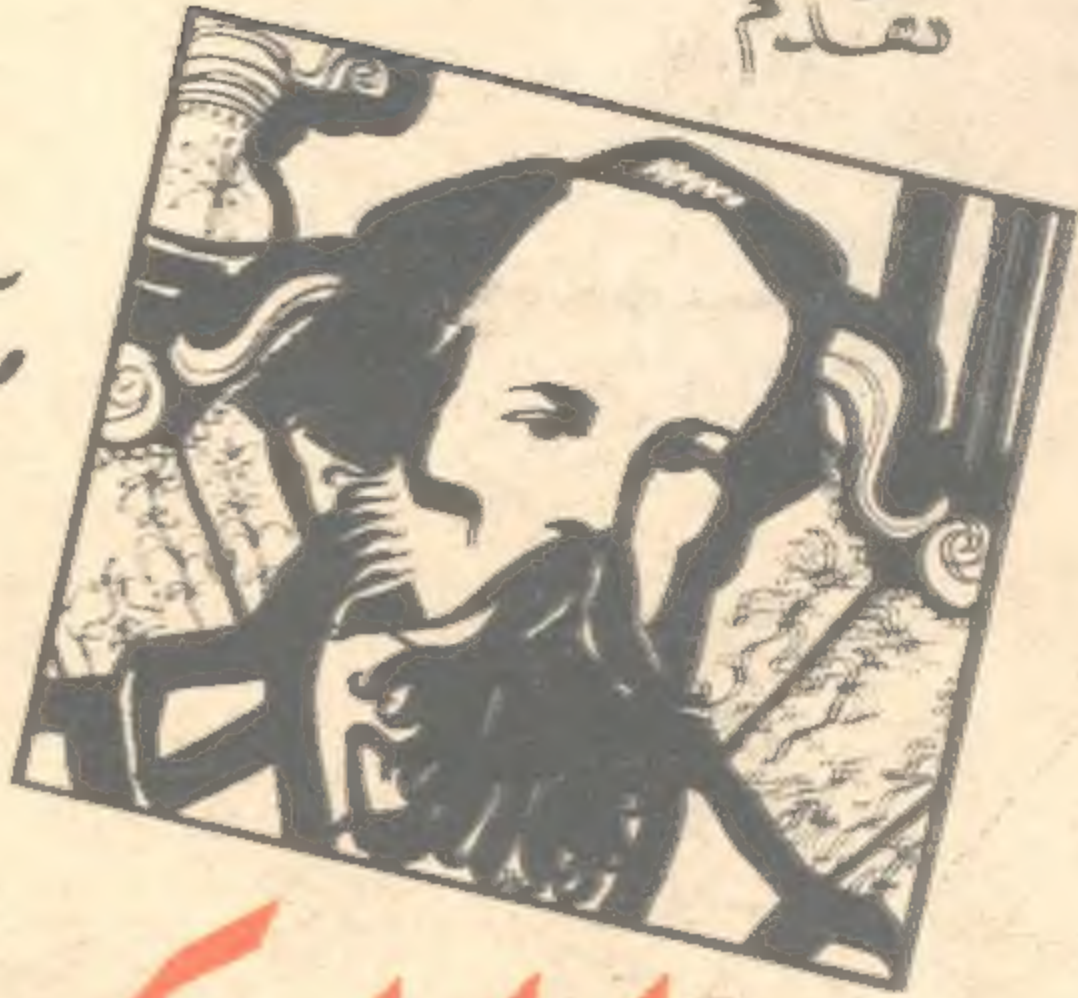




يصدر قريباً

الكتاب السابع  
من

تقدم



مكتبة

الثقافة

العبية

# الماركسية

ترجمة : ماهر نسيم

تأليف : فردريك إنجلز

- كتاب فريد في توبيه طال شوق الباحثين لمثله
- شامل للنظرية الماركسية التي شغلت الأذهان زماناً طويلاً
- يهتم جميع رجال المال والاقتصاد
- تناول الكلام على علاقة رأس المال بالصناعة
- يهتف الكتاب خاتمة وتعليق به

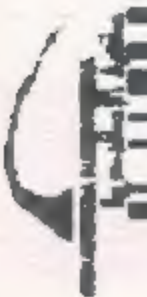
مع باعة الصحف والمكتبات

دار المعارف للطباعة والنشر

Bibliotheca Alexandrina



0601597



ملترزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة - ٣ شارع ماسبيرو - القاهرة